أمير الزاوي

Scanned by
Jamal Hatmal

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

السماءُ الثامنة

رواية

امين الزاوي

السماء الثامنة

رواية

الإهداء :

الى رشيد و نصرو و مصطفى و الآخرين،
اسمحوا لي أن فتحت قلبي بهذا الإتساع،
و الى ربيعة التي وقعت حرارة هذه
الأيام بطريقتها الشعرية الخاصة

د / أمين الزاوي

من إختلط بالناس عرف الدنيا
و من إختلط بالنساء عرف نفسه
و عرف الدنيا و الآخرة .

- أمين الزاوي -

صدر للمؤلف :

- صهيل الجسد : (رواية) - دمشق - ١٩٨٥

- ويجن الموج إمتدادا : (قصص) - الجزائر و دمشق ١٩٨١ - ١٩٨٣ .

-كيف عبر طائر فينقس البحر المتوسط : (قصص) - إتحاد الكتاب العرب - ١٩٨٥

- التراس (رواية في شكل لوحات قصصية) جامعة وهران / ١٩٨٤.

-هابيل (رواية الكاتب الجزائري محمد ديب) الترجمة إلى العربية - دار الجليل ١٩٨٥ .

نحيف السحنة ، هذا الأول ، عود ثقاب ، دعابته ، خفة دمه و لهجته توحي لك بأنه من مدينة « الغزوات » الساحلية ، مدينة عشاق السردين و النبيذ و التهريب و اللغة الإنجليزية ، الفرنسيون في الزمن الأزرق سموها نمور ، بعض الشيوخ لا يزال يتداول هذا الإسم ، عبره يستعيد حكايات الذاكرة ، ، الفرنسيات و الإسبانيات و المروكيات يازمن السهرات « الباو و الكرونبوغ » .

قال نحيف السحنة ، عود الثقاب للذي يقابله ، يتمدد على السرير بجزمته و يلوح أمام وجهه « بكسكيطته » التي غم بها وجهه الأسمر البرونزي .

تاريخ ملوحة البحر على جلده المشوي .

- عندك قارو ؟

الثاني النحيف هو الأخر .. أبيض مائل لونه إلى الأصفر الزعفراني مجلجل بربري ، ملوح الصفرة البيضاوية بشمس يوليو الحادة . ساهم ساكت ، رمى للذي طلب سيجارة حتى دون أن يرفع عن عينيه كسكيطته الزيتونية اللون ، و التي تحول لونها الأخضر هذا عند السفيفة و الحوافي إلى أسود داكن .

طقس للبربري .

طقس للساحلي .

أعطيني النار .. قالها بالفرنسية .

دون أن يرفع كسكيطته من على وجهه سحب عليه الكبريت رماها حيث مصدر الصوت .

الغزواتي / الساحلي يريد أن يشعر الأخر ذا اللون الأبيض بالصفرة الزعفرانية ، أن عطلة العيد الإسلامي هي أجمل العطل .

- اللهم إنني عيدت مع « الميمة » .. أن تشهد ذبح خروف الأضحية و في حضة الأم الحاجة.. هذا هو العيد ..

كان الغزواتي يستعرض صور الإحتفالات ، و البربري يستعيد حكايته مع مجموعة من الأجانب الألمان إلتقى بهم في واحدة من جولاته في أوروبا .

كان الليل ليلبا فحميا ليس كلياليا في بلاد القبائل ، كانت البيرة و الوسكي و الغابة و الفتيات ، و الغناء ، لا أحد يسمع الثاني و لا أحد لا يسمع الثاني .

رقصنا كثيرا ، رقصت و شربت ماأعرفة ، و مالا أعرفه ، راقصت النساء و الفتيات لون بشرتي على بياضه الأصفراوي بدا أمام لون بشرتهم المسكوب من أبيض بياضي ، مائلا إلى الإزرقاق .. هكذا شعرت ، هو شعور لم أستطيع تفسيره ، لكنه هيمن علي في بداية السهرة ، شراب هو من النوع الذي لا أعرفه هو الذي أنقذني من التقنفذ حول نفسي .

ما تعلمته من الألمانية كان كافيا لقضاء مآربي .

في تلك اللحظة فكرت في الزواج بكل النساء اللواتي راقصتهن ، و كلما فكرت في هذا الأمر يسقط ،حين أرى شابا يراقص هذه أو تلك الغزواتي يجنجن كالذبابة . أتركنا في همنا يباوجه الهم .

السهرة طويلة ، و اللسان طويل ، و حين يطول اللسان ، من الأفضل أن يقطع و يرمى للكلاب المسعو رة .

تحدث الألمان عن الأكلات التي تميز المائدة الجرمانية شرقية كانت أم غربية لم تعجبني أكلتهم التي تدخلها الطماطم كل لحظة .. إسباني معنا أكتشفه الآن فقط . ساكت لا ينطق إلا ليغني ، عرفت في الأخير أنه لا يفهم الألمانية ، شعرت بنوع من التقارب العاطفي تجاه الإسباني حين يطلق صوته في السماء لست أدري لماذا يذكرني بزرياب .. تكلم الإسباني ، لا أذكر إسمه ، عن البايلا هي أكلة جميلة ، الإسباني هو الذي دفعني كي أقول مالا يجب قوله .

العيون تتجه الي تنتظر مني أن أحدثهم عن أكلة جزائرية شعرت أنهم كانوا ينتظرون أن أحدثهم عن « الكسكسي » لكني أردت مفاجأتهم، بدأت الحديث عن « المنسوف » و هو خروف مشوي ، كان إستقبالهم لحديثي عاديا ، لكني تحمست كثيرا - قلت لكم ، اللسان إذا طال يجب أن يقطع و يرمى للكلاب المسعورة - قلت لهم أحضروا خروفا أذبحه ، سقطت كلمة الذبح عليهم كالصاعقة دون أن أنهي شرح طريقة تحضير الأكلة ، أنسلت المرأة التي كانت في حضني

شعرت بجسدها قد تجمد و كان قبل لحظات فائرا يغلي .
قلت لكم اللسان إذا طال يجب قطعه من البلعم حتى لا ينبت مرة أخرى ، بهذا الطول و هذا الطموح الزائد عن اللزوم ، الذين كانوا يشربون و يغنون و يفرحون إنطفأوا .. شخشخوا في كلامي كما تشخشخ الجمرة في الماء ..
تفرقوا .. عادوا إلى خيامهم للنوم أو لإنتظار الصباح ، و حده الإسباني - ابن هانئ الأندلسي مكث الى جنبي أحسست بشعور عميق اتجاه ..
قال لي الإسباني . تذكرت إسمه ما كان يجب نسيان إسمه أنطونيو كان صديقي ، هو ينبهني إلى طول لساني الذي يجلب وجع الرأس ، أمي فهمت كل كلامه ، مراسلتي المديدية هي التي حرضتني على تعلم الإسبانية ، خدعتني و لكن رسائلها التي لا أزال أحتفظ بها ، فيها كثير من الشعر و الأحاسيس الإسبانية الصادقة ..
ربما لساني كعادته هو الذي أفسد علي قراءة رسائل الإسبانية ..
في البداية كنت أعطي الرسائل لصديق لي لقراءتها و الرد عليها ، كان علي فقط أن أملي عليه ما أريده بالفرنسية ..
كان تعلمي للغة الإسبانية رد فعل ضد صديقي الذي أراد أن يصادر المرأة المراسلة ، لقد بدأ يكاتبها خفية .

كانت صادقة، نحن العرب غير صادقين ، قلوبنا فيها الدود و السوس و الذهان الأزرق .

أرسلت إلي بكل الرسائل التي بعث بها اليها صديقي .. ضحكت منه تخاصمنا ذلك المساء سال الدم من أنفه .

و في اليوم التالي سجلت إسمي ضمن قائمة طلاب المركز الثقافي الإسباني ثلاثة أشهر كانت كافية لتعليم هذه اللغة .

التعليم بالقلب أجدى من التعليم بالعقل .

جميع التمارين كنت أقوم بها على رسائل < مارغريتا > .

يمكنني أن أستعيد الأن فقرات منها .. لقد كانت رائعة .

على الرغم من أنها كانت تبعث لي برسائل صديقي الموجهة إليها و الملبئة حبا .. مما كان يجعلني أضحك منه ، أذكر مرة أنني أضحكت عليه مجموعة من الأصدقاء في مقهى < المنصورة > التي كنا نجلس فيها كل يوم عند الساعة الخامسة ، يومها غضب صديقي كثيرا ، و أقسم أمامنا جميعا أنه سيدعوها إلى زيارة الجزائر و أنه محرج لأمر واحد هو أخوته و عائلته .

فرحت كوني إستطعت أن أكتب إليها رسالة بالإسبانية دون إستشارة أو تصحيح من أحد ، لقد شعرت بإستقلال لغوي .

يالله كم هو لذيذ الشعور بالإستغناء عن الأخر و كم هو قبيح الشعور بالعطب و الشلل و العجز .

توقفت رسائلها عني .. و في الصيف الموالي رأيتها بام عيني تسير ذراعها في ذراعه في شارع العربي بن مهيدي .

قطعت أخر علاقاتي بصديقي .. يقول أخوه الأصغر أنه سافر معها الى إسبانيا و أنهما تزوجا و أنه يملك فندقا ضخما بخمس نجوم ... الدنيا حظ .. و أن له حرسا و أنه شارك في الحملات الإنتخابية الأخيرة في إسبانيا لصالح حزب زوجته الذي حصل على الأغلبية في البرلمان ..

الدنيا حظ .. كان بالإمكان أن أكون أنا هو .

و لكن ربما بإمكاني أن أفتح علاقة مع واحدة من الألمانيات لكني و كما قلت لكم اللسان الطويل يجب قصه من الجذور ..

حكاية أكلة « المنسوف » هي التي نسفت كل شئ .

و الكلام الزائد في السياسة و الأديان المقارنة هو الذي جعل « مارغريتا » تتخلى عن مراسلتي بمجرد أن أكتشفت في صديقي الجدية و الهدوء و الإبتعاد عن الكلام الفارغ .. بيني و بينكم معها الحق و ألف حق فأنا متخلف و أفكار إقطاعية تحوم برأسي في كل لحظة .

الذين كانوا معنا في السهرة تلك الليلة الجرمانية تفرقوا في الصباح التالي لقد هلعهم حديثي عن ذبح الخروف .

الفتاة التي كان بالإمكان أن أدخل معها في الحملة الإنتخابية إلى جانب حزبها الداعي إلى نسف حائط برلين و توحيد الألمانيتين .

قالت لي في الصباح ، لحظات قبل أن تركب سيارة « فولقسفاقن ».
كنت دائما ضد الأفكار التي ترى في العرب قوما فاشيين و قتله و إرهابين ، لكنني و بعد أن تيقنت من أن بإمكان مثقف ماركسي أن يذبح خروفا و يتمتع بالدم يسيل من الرقبة أحمر فوارا فإني أعتقد أن العربي بطبعه دموي ، حاولت أن أقنعها أن الأكلة التي حدثتهم عنها هي فصل في حكاية خرافية أصلها صيني و أنها جاءتنا عن طريق تجار الحرير و الذهب و الملح الذين كانوا يسافرون إلى سنغافورا .
- و حين حاولت أن أقنعها بأن لغتي الألمانية الضعيفة خانتني في التعبير كانت قد جلست الى جانب صديقتها التي لم تفوه حتى بعبارة الى اللقاء .
حين غادر الجميع المكان ، لم يبقى غيري و الإسباني .
قلت له بحماس زائد ، كالعادة بلساني الطويل الذي يحتاج الى قص من البلعم :
- يخافون من الدم وهم الذين قتلوا اليهود و أبادوهم جميعا .
الإسباني كان ساكتا ربما أثر فيه شراب الهارحة .
قضيت صحبة الإسباني ليلة أخرى ندمت عليها ، لأنني تصرفت تجاهه تصرفا أحمق ندمت عليه .
هو لم يثر فيه الأمر أي شيئ .

أما أنا فقد خجلت من نفسي ، لقد شربنا قليلا أو كثيرا في حانة متوسطة مكثنا هناك حتى آخر الليل .

و حين عدنا إلى الفندق طلب أن أرافقه إلى غرفته الموجودة في الطابق العاشر .

رافقته ووقع الذي أخجل الآن أن أحكيه لكم ، لم يكن الشراب هو السبب لا ذنب للخمر في ذلك لقد كنت في كامل قواي العقلية ، حين نمت معه و مارست معه ذلك الشيئ الذي نخجل في بلاد الإسلام من التحدث عنه .

قال لي الإسباني في الصباح حين كنا نشرب القهوة على سطح الفندق ، و قد بدت علي بعض علامات الخجل ، يبدو أنه لم يعر الأمر أية أهمية :

-ثقافتك الإسلامية ضعيفة .. فأنت لا تعرف شيئا عن الغلمانيات .

ما قرأناه في الثانوية من نصوص أبي نواس و بشار إبن برد و غيرهما لم تقدم لنا شيئا مما يحكيه الإسباني الآن ..

يبدوا أن فضائحنا ذات جذور عريقة في التاريخ .

أضاف الإسباني و هو يشرب كأس عصير الطماطم بطريقة بدت لي مقرفة .

لقد أخذ الأوربيون عن العرب ، الخمر و التمر و الغلمانيات .

أنتم في العالم الإسلامي تراجعتم عن حضارة الغلمانيات التي إزدهرت في العصر العباسي

وهو العصر الذهبي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية .
كان الإسباني يتحدث عن حضارتنا في الشرق و الغرب في الأندلس .
و في الجمهوريات الإسلامية السوفياتية ..
تحدث عن إبن رشد و إبن هانئ و إبن زيدون و أعتبره أهم شاعر
رومانسي أنجبته البشرية .
كان يتحدث و أنا أسمع كالجاهل . قلت له من إبن لك بهذه
المعلومات؟ عرفت بعد ذلك بأنه أستاذ في جامعة قرطبة . و أنه أستاذ
علم الجمال و الفلسفة العربية الإسلامية الوسيطة .
على الرغم مما كان يحكيه من و قائع مخجلة عن الخلفاء و الفلاسفة و
الفقهاء إلا أنني شعرت بنوع من الإعتزاز . تمنيت لو أنه حكى ذلك
أمام الجرمانيين الكلاب العنصريين .
اللغة الألمانية هي التي خدعته و لم تتركه يتدخل ليشرح لهم بأننا
شعب لنا حضارة أخرى . غير حضارة القتل و الدم التي أنطبعت
صورتنا من جراء ممارسات سلطة النميري و الخميني و تصريحات
الزعماء الدينيين الملبثة بالإرهاب و التي تشبه تصريحات حزب
« كاهانا » اليهودي .. الأمر الذي يجعلني متيقنا الآن أن الأحزاب
الدينية مهما كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية فهي في جوهرها
دموية .

عرض علي الإسباني و هو أستاذ جامعة برتبة كرسي أن أسافر معه الى قرطبة و أن أعيش معه هناك ، الى جانب زوجته الرسامة المعروفة و إبنتها المعوقة التي لا تفرق كرسيها المتحرك و التي لها صوت أوبرالي رائع و تكتب شعرا رقيقا ، قدمت عنه حتى الأن ثلاث أطروحات جامعية.

و أنها نالت عن ديوانها الأخير جائزة من اليونسكو .

قال لي الإسباني هيا لتعش معنا تصحب إبنتنا « فيوليتا » الى المكتبة الوطنية و الحفلات الموسيقية ، و ترتب لها بريدها ، و تغير لها المطرح الذي تجلس عليه في كرسيها المتحرك مرة كل ثلاثة أيام و ترافقها أيضا لقضاء بعض حاجاتها .

فكرت في هذا العرض .. قبل أن أجيب طلبت قهوة معصورة .

الإسباني أيضا طلب لنفسه شيئا لا أعرف ما هو شبئ شبيه بالعصير جاء القرصون الأنيق ، تكلم قريبا في أذنه عرفت أنه يخبره بأن له مكالمة هاتفية .

قام الإسباني بعد أن قدم لي إعتذاره ، المرة الأولى التي أحدق في جسده الأنيق تتبعته بعين خبيثة غيرأخلاقية حتى دخل غرفة التليفون ، الزجاج الرمادي هو الذي أخفى عني قسمات جسده المبروم « كالبوراك » - زوجتي تطلب مني أن أدخل حالا .. إنها تفضل أن تحتفل بعيد ميلادها في مدينة « العيون » التي ولدت بها .

أنا ضد هذه الفكرة فالمدينة التي زارها الأمين الأممي مؤخرا تنذر في كل لحظة بإنفجار دموي ..

إنها مصرة على ذلك ، قالت لي حين حاولت أن أقنعها بالعدول عن هذه الفكرة ، و أن تلتحق بي الى ألمانيا

- لو أني و لدت في بيروت فلن أحتفل بعيد ميلادي الخمسين سوى في هذه المدينة .

بدأ يحدثني عن زوجته و كأنما كان يغريني بها .

تركني للحظات ، قال لي سوف أطلب منهم أن يحجزوا لي مكانا في أول طائرة إلى مدريد .

بقيت و حدي أبحث عن نفسي .. الإسباني يغريني ، وادا ء سنتين من الخدمة العسكرية في بلادي يدفعني الى الإبتعاد و عدم التفكير في الرجوع أصلا .

قبل أن يعود أنطونيو الى الطاولة التي نتقاسمها ، كنت قد قررت أن أذهب معه و أبحث عن غريمي هناك ، ذلك الذي صادر مني

«مرغريتا»

و قررت أيضا أن أرتكب في حقه جريمة . سيسكنه الرعب بمجرد أن يعرف أنني موجود في هذا البلد .

من اليسر جدا العثور على عنوان أو تليفون شخصية مثل غريمي .

سأتلفن له أسأله عن أحواله و عن « مرغريتا » و عن الحزب الذي يقوم بالدعاية له في الإنتخابات البرلمانية ، كما في الأفلام البوليسية ، سألعب لعبة الحضارة ، سأقتل كل أثار للثقافة الأقطاعية في داخلي .. سألعب المسرحية الى آخر لقطة .

حتى أسحب مرغريتا من بين ذراعيه ، إبن الكلب لا يستحقها ، ضحك عليها أكل فلوسها و أسس شركات كبرى من أموالها أنا إبن البلد أعرف اللغة التي أستعملها معه « خروف بلادي » ..

سأحطم عليه السقف .

فيوليتا شاعرة من نوع خاص ، زوجة أنطونيو هي الحل ، و المنفذ الى قلب هذه المرأة .

خمسون سنة إنها ليست مسنة .. أنطونيو يحدثني عنها كمراهقة ، حبها ركوب الخيل و مص أصابع الثلج في الشارع ، و الإستحمام على شواطئ السنغال عارية تماما .. لإنطونيو نية أخرى.

أعرف مرغريتا على زوجة أنطونيو ، أشعرها بأن بيننا علاقة ما .

يجب أن أكون مع زوجة أنطونيو مراهقا بكل معني الكلمة ، لن أحدثها عن الثقافة أو الأحزاب التي تتناسل يوميا في بلادي ، كل هذا كلام زائد ، شبعت منه حتى تقيأته .

ستأخذني بين ذراعيها و تقول لي أحك لي حكاية خرافية من حكاياتكم التي لا علاقة لها بالواقع ،

أحك لي حتى يطلع الصباح فانطونيو لن يعود من باريس الاالي طائرة السادسة صباحا ، اتريد أن تشرب نوعا معينا من المشروبات الكحولية التي تهيج الأفريقي و الحاكي .

- أعطيني أي شيئ يسكر كثيرا و كثيرا .

- لكن عليك ألا تنام و تتركني أمام كومة اللحم المرتخي .

ضحكت ، اعجبني كلامها ، تتحدث كالشواعر .. ذات ليلة قالت لي عليك أن تتعرى أريد أن أصنع لجسدك « بورتريه ».

الليل بطوله قضيته عاريا ، وهي تحدق في دقائق جسدي ، بعد هذه الحادثة لم أسألها فيما اذا كانت قد أنهت البورترية على الرغم من أنني لم أكن راغبا في رؤيته قالت لي ذات مرة : لم تسألني عن « البورترية » الذي وعدتك برسمه و لأني كنت أريد أن أهرب من الموضوع ، فقد غيرت مجرى الحديث ، الا أنها عادت إلى قضية البورترية قائلة .

- البورترية سأهديه لمرغريتا ... مرغيرتا التي سبق و أن عرفتني عليها أنها تستحقه ، أنها فتاة رائعة .

سأقدمه لها بمناسبة عيد ميلادها .

قلت لها :

- عيد ميلادها يوم ..... 14 / 04 هويوم لايمكن أن انساه فقد كنت انتظره بشغف كي أبعث لها التمر و الحناء المدقوقة .

آه يا ابن البلد سأوجع رأسك و أنت على سريرك .

حين قالت بأنها سوف تقدمه هدية لمرغريتا طلبت منها أن اراه ، قالت لي غدا نتزل إلى المرسم هناك تستطيع أن تراه .

في اليوم التالي ذهبنا أربعتنا إلى المرسم ، الأستاذ أنطونيو وزوجته ابنتهما و أنا .. حين رفعت الازار الأبيض الذي كانت تغطي به اللوحة شعرت بلحمي يقشعر .

في الحقيقة لقد خجلت من نفسي ، ولأول مرة أميز ضخامة عضمي الجنسي ، لا أعتقد أن المسألة بهذا الحجم ، الفنانة هي أرادته بهذا الحجم ، كانت إبنتها تنظر إلى اللوحة ثم تنظر إلى منتصف جسدي ، أدركت مافي عينيها ، علقت على اللوحة بعبارة واحدة .

- تستحق أن تهدى لا مراة جموحة كتلتك .

الأب هو الآخر كان ينظر إلى إنتصافة جسدي ، ربما تذكر بعمق عميق الليلة التي قضيناها معا في المانيا ، كانت ليلة جرمانية حقا .

- أخترت لها هذا الشكل الإسلامي لأنها متزوجة بعربي إنه تعبير عن حبهما .

سكت الأب ، كنت متيقنا أنه يريد أن يقول شيئا ، إني أعرف جيدا ما يدور بخلده إنه يريد أن يقول لزوجته أتركي لنا هذه اللوحة ذكرى هذا الرجل .

كنت أعرف أيضا أن الزوجة أدركت ما يدور في رأس زوجها .

و يبدو أنها كلما حققت في اللوحة ، تحاول أن تتراجع عن قرارها .
أما أنا فقد كنت متحمسا أن تكون هذه هدية عيد الميلاد ، إني أريد أن أكون وجع الرأس بالنسبة لغريمي ، إني أحقد عليه كثيرا ، و أتمنى له الموت .
أن تطحنه سيارة أو آلات مصانعة .
علقت بعبارة واحدة ، أردت أن أقطع كل خيط أمل في رأس أنطونيو - هذه اللوحة تستحق أن تكون هدية .. لا أريدها أن تبقى في المنزل إما أنا أو هي ، على واحد منا أن يرحل .
ضحكوا جميعا ثم خرجنا من المرسم ، ستة عيون كنت أحس بها تأكل ظهري تنهشه نهشا .
كنت أتخيل صورتي بهذا العري تواجه غريمي .
ستنهض في داخله كل الأفكار التي أعتقد أنه دفنها تحت ركام فلوسه و شيكاته .
سيشكل حزبا دينيا لمواجهة اللوحات العارية في كل إسبانيا و بلدان السوق الأوروبية المشتركة .
سيدخل حزبه في منافسة سياسية ضد حزب زوجته .
سيشتري الأصوات و يفوز بالأغلبية و يدعو الى أسلمة إسبانيا و يفرض غرامات على كل الشعب الإسباني لأنه إرتد عن الإسلام .

فكرة هائلة تحتاج إلى زعيم سياسي بلغة دينية ، هو لا تتوفر فيه هذه الصفة.

ربما سيستنجد بي ، أنا تهمني مثل هذه الامور ، ما أريده من كل ذلك هو أن أجلب له وجع الرأس ، أن أخطف من بين يديه زوجته و لو لمدة ثلاثة أيام أتزوجها أبصق في وجهها ثم أنصرف .

كي أحقق كل مشاريعي هذه علي أن أقرأ سيرة طارق ابن زياد ، هو البربري الوحيد الذي استطاع ان يغير مجرى التاريخ على المسلمين جميعا أن يتبربروا و أن ينصبوا لطارق بن زياد تمثالا من المرمر الفارسي في كل ساحات المدن الإسلامية ، هذه الشخصية ، كان على العرب أن يقرأوا إستراتجيته في عبورالبحر كي يعبروا القناة للدخول إلى فلسطين سأكون أنا الشخصية المسلمة الثالثة التي تعبد للإسلام صورته الحقيقية ، ربما تعود كل الاسباب التي ادت إلى فتح أو غزو الأندلس إ لى حب طارق إبن زياد لإمرأة جميلة سقطت في حبائلها ، وحين أدركت حبه لها قالت له أهلي يرفضونك لانك أفريقي متوحش و عليك ، كي تتخذني لك زوجة أن تفتح اسبانيا و تغير دينها و سلطانها و لغتها ، شرب طارق في ذلك المساء كثيرا من الخمر و تناول قليلا من الحشيش المزروع فوق السطوح الترابية و قرأ في بعض الكتب البربرية و الإسلامية عن غيرة النساء و خداعهن .

دخل عليه واحد من مساعديه قال له :

ماذا تقرأ ؟ هل يحتاج الزعماء إلى مثل هذه الكتب كي ترتفع مداركهم و تتعزز أفكارهم ؟

دخل طارق إبن زياد مغارة مكث فيها سبعة أشهر و أزداد أربعة قرأ خلالها سير النساء و سير الزعماء و علاقاتهم بالنساء.

كان يقرأ و يضحك ، يقرأ و يبكي ، كان يأكل الخبز حافيا و يشرب دموعه قال له أحد مساعديه كيف تشرب الدموع و هي مالحة ، ضحك طارق و قال :

الآن انفصلت عن العامة ، من اليوم علي أن ابدأ في رسم الخطة التي ساطبقها كي أقتحم البحر و أعبره .

و في اليوم التالي سأله ذات الرجل عن سر شرب الدموع بدلا عن الماء لم يجبه طارق لانه اعتبر ذلك من أسرار الحرب التي عليه أن يحتفظ بها في قلبه ، ولن يبوح بها إلا للذين سيعبرون معه البحر في تلك السفرة الحربية العظيمة .

- النساء حرب دائمة :

على العشاق و الزعماء أن يتعلموا من الرسول العربي فهمه للمرأة و عليهم مادامت ذاكرتهم ضعيفة أن يحفظوا بيتا شعريا واحد لمحمود درويش (و الجرح ليس يؤلم اذا لم يكن جرح النساء) .

بعد خروج طارق من عزلته ، لم يذق ماء إلا ماء دموعه ، كان يبكي على
حبيبته ، فتسيل دموعه فيجمعها في كؤوس من فضة فيشربها ،
كان عليه أن يدخل الجنود إلى عزلة مثل عزلته .
أن يبقيهم تحت الأرض مدة مثل التي قضاها هو ،أو أزيد حسب ايمان الأفراد .
في البداية ، حفر الانفاق أدخل اليها مئة و ثلاثة و سبعين رجلاوخمس نساء ، دون أن يعرف الرجال أن من بينهم نساء ، و دون ان تعرف النساء رجالا من بينهن .
عرف طارق منذ اللحظات الاولى ان النساء ادركن أن رجالا من بينهن وتوقفن هم مع العلم أن نظام الاعتزال يمنع الكلام .
لقد كان هذا الدرس الاول الذي تعلمه طارق من العشرة أيام من نظام الاعتزال .
لذا سجل الملاحظة الاولى ، لن يقود الجيش العابر للبحر الا إمرأة أو رسولا يعطي برهان نبوّته و تؤمن به النساء اولا .
الرسول العربي ما كان لرسالته أن تعرف هذا النجاح لولا إيمان « خديجة » ، إنها المرأة التي تحتاج الى دراسة لا كتشاف سر إنتصارالشريعة .
ان في شخصيتها أسرارا لم يكشفها الدارسون .

كذب المؤرخون حين اعتقدوا أن موسى ابن نصير سكنته الغيرة من الفاتح البربري ، الغيرة التي تحدث عنها البعض ماهي الا الخجل الذي يصيب العربي المسلم حين يعرف أن وراء نجاح ما إمراة ، كذا ما أصاب موسى ابن نصير .

الواقع ، أنا لاتهمني الزعامة العسكرية أو السياسية ، ما يهمني في الموضوع برمته ، هو دور النساء ، وكيف يتم إستغلال طاقتهن غير المحدودة لمواجهة غريمي في اسبانيا .

و أخرج طارق النساء في الأول فقد تعلمن فن الحرب و الاعتزال في مدة أقل حتى من تلك التي قضاها هو .

و بعد هن مكث الرجال الذين مات منهم سبعة و ثلاثون فردا ، قضوا نحبهم بعد أن شعروا بعجزهم ، تسعة منهم انتحروا لانهم لم يستطيعوا الانتصار على رائحة النساء في هذه الاتفاق ، خاصة أيام نزول دم الحيض ، الذي لم يستطيع طارق إبن زيادان يجد طريقة لحبسه في رحم النساء لقد بحث في كتب الفقه و الفلسفة البونانية و الطب الصيني واستعمل حتى الموسيقى الهندوسية التي تخرج الافاعي المدفونة من تحت التراب الاحمر الدافئ .. كان ذلك فشلا ذريعا .

فكر في ان يحول الميزة النسائية إلى مكسب يمكن استعماله في بعض الحالات الصعبة .

لقد نجح في تحويل دم العادة الشهرية إلى دواء ضد الجرب ، بعد أن احتكر تجار الحرير و الملح تجارة الكبريت .

كانت النساء مبتهجات بانتصارهن ضد الرائحة الكريهة التي ترسلها اجسادهن كل شهر خلال أيام العادة الشهرية .

و لأن الجرب كان متفشيا فقد اكتشفت النساء اهمية هذا الدم الكريه الذي ينزل من اجسادهن كل ثمان وعشرين يوما .

لقد انقلبت الامور ، طارق إبن زياد هو الذي قلبها ، فعوض أن تخفي النساء سر نزول الدم كن يحتفلن بالواحدة منهن ، كلما نزلت القطرات الأولى ، كثرت الزغاريد و نتج عن كثرة الإحتفالات أزمة في البيض نظرا لان المرأة الحائض لم تكن تفضل اكل شيئ سوى البيض .

أمر طارق إبن زياد علماءه أن يعتزلوا كي يفكروا في إنتاج و صناعة البيض من عصير بعض الحشائش بإضافة خليط كمياوي تحدث عنه جابر إبن حيان مع غموض في التركيب و قيم المواد المخلوطة .

فشل العلماء ، بعد أن كاد أحدهم أن يحقق شيئا من ذلك .

النساء حين علمن باقتراب الاكتشاف خفن أن يصل هذا العالم إلى إكتشاف تركيبة دم الحيض ، فيقضي على مرض الجرب دون العودة إلى النساء ، لقد دبرن له عملية قتل غريبة ، إذ كلفن واحدة منهن ،

للدخول عليه في عزلته ، ومراوغته حتى تجره إلى الفراش وكان الذي دبرته النساء.

وعلم طارق أن العالم الذي أوشك على إكتشاف تركيبة البيض قد خان القائد بكسر العزلة و أدخل إمرأة إلى مخبره و انه نام معها ، غضب طارق و دعا علماء البلد البربرية إلى الإجتماع العاجل لدراسة خيانة عظمى وقعت في البلد .

بعد ست ساعات ، كما حدد ذلك بيان القائد العام جاء الشيوخ و العقلاء و الفقهاء و الحكماء و الفلاسفة راكبين على البغال و الاحصنة و لم يدع إلى هذا الإجتماع الشعراء لانهم يحكمون العاطفة في كذا مسائل ، و قضايا مثل هذه وراءها إمرأة جميلة .

قال طارق لا تبلغوا الشعراء ، سيحولون المحكمة إلى سوق المربد ، فبدل أن يصدروا حكما سيكتبون قصائد غزل في المرأة ،

العاطفة هي التي قتلتنا ، العرب حين دخلوا شمال إفريقيا ، اخطر ما حملوه إلى هذه المنطقة هو انهم حولوا البربر من شعب عقلاني يتحدث بقلبه و عن قلبه . على عكس ما كان متوقعا لم يدافع العالم عن التهمة (علاقته بالمرأة) الا انه اخرج امام مجلس الحكماء المؤقر كيس نايلون مليئ بالمني ، ثم صرخ في الجميع :

عيب في بلد العقلانية ان يحاكم الجاهل العالم ...

انا لا أنفي يا سيادة الرئيس انني كنت على علاقة بهذه المرأة الجميلة و انني أضيف إلى علمكم ماتجهلونه أو ما لا تعلمونه هو أني كنت أمارس معها سبعة عشر مرة في اليوم هذه مهمة أتحدى أي أحد فيكم أن يقوم بربعها .

العملية الكمباوية التي كنت بصددها و هي كما تعلمون واحدة من اسرار هذه الدولة التي نحبها كما نحب الله ، و كثيرا من المرات تنسينا الله ، لانه لا يتشكل في شيء مادي محدد ، كما هو الشأن بالنسبة للدولة ..أن التجربة التي تقوم بها عقول هذا البلد الذي حوله العرب بعد دخولهم إلى معلقة شعرية و مناحة للبكاء و الوقوف على الأطلال ، تتطلب منا الجرأة الاخلاقية قبل الجرأة العلمية .

إيمانا مني بأن العلم دون جراءة أخلاقية هو دين .

وكما تعلمون فإنا لا علاقة لي بالنشاط الديني ، أقدر في العرب المسلمين قوة العاطفة الشعرية و الجنسية و في اليهود قوة العبقرية التجارية و في المسيحيين قوة التسامح .

سيداتي و سادتي ... قاطعه أحد أعضاء المجلس الموقر قائلا :

- لا توجد بيننا إمراة فكيف لك أن تقول سيداتي .

أجاب العالم بثقة كبيرة و يقين عظيم :
- إنني أعرف أن من بين الحضور أزيد من النصف من النساء ،
و اذا كنتم ترون غير ذلك و أنتم مصرون على مواقفكم فبإمكاننا ان

نتعرى جميعا آنذاك ستنكشف لكم الحقيقة .
- لقد جن هذا العالم .. عليكم أن تدخلوه إلى مستشفى الأمراض العقلية .. إنه أضافة إلى ذلك اهان المجلس الموقر .
- أما عن المراة التي كانت تزورني كل يوم و كنت أنام معها سبعة عشر مرة في النهار ، فبدل أن يحاكمني مجلسكم المنور ، كان عليه أن يأمر بتكريمي و إعطائي جائزة الفحولة التي اختفت من هذا البلد واضيف إلى علم أعضاء المجلس المنور أنني لم اقم علاقتي مع هذه المراة على أساس عاطفي كما يفعل العرب المراهقون .
بل على أساس المصلحة العليا للبلد ، فصناعة البيض لا يمكن تحققها إلا بإدخال المني كعنصر أساس في تركيبتها الكيماوية
- تدخل القائد العام الذي كان يتشق سيفا و يحمل مجموعة من الاختام التي تستعمل عادة في بصم الوثائق الصادرة عن هذا المجلس و الخاصة بحكم الاعدام ، قال القائد ، بلهجة حادة و حزينة
- أوقفوا المحاكمة .
صعد إلى المنصة و كتب قرار المحكمة الصادر عن المجلس المنور و قد و قعوه جميعا و هذا نصه .

نحن أعضاء المجلس الأعلى لهيئة عقلاء بلاد بربروس العظمى و بعد المداولات و المناقشات القضائية و العلمية و الفكرية قررنا بومه الخاموس من شهر بيرابر بالتقيم البربري مايلي :

- بعد أن تأكد للجميع من أعيان الدولة المباركة نزاهة العالم محندوس أو سعدوس و أن هلا قته بالمرأة لا تخل بالإيمان بالعلم و العمل ، و لا بالله نطقت المحكمة بالبراءة للعالم ، و بالحكم بالإعدام على أعضاء المجلس الموقر .

يتم التنفيذ فور الإنتهاء من قراءة النطق ، و بموجب هذا البيان أيضا يسمى سعادة رئيس بلاد بربروس العالم محندوس أو سعدوس قاضيا على البلاد للنساء و الرجال و بموجب هذا القرار أيضا يحل المجلس الأعلى للنساء لأنه لم يستطع رفع الدعوى الضرورية ضد المرأة التي أخلت بالنظام و التراتيبه المعترف بها في هذا البلاد .

و بموجب هذا القرار يتم تجريدهن ، من الأملاك التي حصلن عليها بمقتضى الوظيف السامي ، بموجب هذا القرار تطلق جميع النساء و يتم حجزهن بعيدا عن الرجال لمدة تسعين شهرا ، يتم السماح لهن فيها بممارسة الجنس مرة واحدة و للمرأة حرية تحديد هذا اليوم ، و لها حق أكل الرجل الذي يمارس معها إذا رغبت في ذلك و بموجب القرار هذا أيضا تمنع هؤلاء النساء من ركوب الخيل منعا قاطعا إذ لا فرق بين ركوب الخيل و ممارسة الجنس ، أنهما شيئ واحد .

فالمرأة حين تريد خيانة زوجها أوعشيقها تشتري حصانا تركبه كل يوم ، و حتى الأحصنة في هذا البلاد تدرك أغراض المرأة على ظهرها . لذا يمشي الحصان بهرولة معينة .

و أمام فضيحة ركوب الخيل لوحظ تشوه عام في مشية الخيول التي فقدت كل أصالتها و بموجب هذا القرار يكلف رئيس البلاد القاضي العام بتشكيل فريق علمي يدرس أمكانية إنقاذ الأحصنة من تشوه المشية و تشوه الصهيل في حناجرها .

إنتهى نطق الحكم الذي روجع لغويا و قانونيا من قبل لجنة الحكم :

ملاحظة :

وضعت نسخة من هذا القرار لدى القاضي العام ، و مثلها لدى حامل الأختام ، مثلها في أرشيف المكتبة الوطنية العظمى ، و مثلها في وزارة الداخلية و مثلها علقت في الساحة العامة .

و كما كان أعضاء المجلس المنور يتلقون خبر الحكم عليهم بالإعدام بالخوف و الإرتعاد ، كان العالم و بذات الإحاسيس يتلقى قرار تعيينه قاضيا عاما .

قال القاضي العام :

هذا حكم بالإعدام علي أنا أيضا من قبل النساء و بالفعل هذا الذي كان فقد طلبت أول إمرأة عضو في المجلس النسائي المنحل و اللواتي سجن بغابة تبعد عن المدينة بثلاث عشرة كلمتر ، بالمناسبة هذه الغابة مختصصة لتربية النحل .

طلبت القاضي لتمارس معه حقها في الجنس ، و بعد الإنتهاء إجتمعت النساء و فتحن بطنه و أخرجن كيس المني ثم شربت كل واحدة منهن قليلا منه ، فحبلن جميعا .

و نزعن عنه عضوه منتعضا و الصقنه في جذع شجرة أدمية ظلت تعطيه ماء الحياة حتى عادت الحياة للعضو ، فبدأت النساء في عبادة هذه الشجرة و نسين الله الذي لا إله إلاه خالق السموات و الأرض و ما بينهما هو العليم الحكيم الحليم .

قالت النساء اللواتي الفن نشيدا جميلا و خالدا في شجرة الروح هذه ، و الذي كن ينشدنه بطقوس يونانية و شعائر إفريقية و صوفية نفرية ».

أمام الشجرة و كل مساء لقد ساد النظام الجنسي في الغابة فكانت كل إمرأة تعرف ليلتها التي تباتها معانقة جذع الشجرة ...

قالت النساء : لم نعرف طوال حياتنا إيمانا كما الإيمان الذي نمارسها الآن فسبحانك يارب ....

قال الهربري الذي بدا عليه التعب من كثرة خلط المشروبات الكحولية التي قدمها له الإسباني كي يخربه بفعله المنكر ، الذي فعله ، على كل ، يوم القيامة يحاسب الإسباني على فعلته هذه لأنه غرر به وأسكره سكرة غير عادية خطفه من ذراع المرأة التي تشرف على تسهير البار في الليل .

أنا لست مذنبا الله تبارك و تعالى يعرف ما يسوس في الصدور .
أما هذه الأعمال الظاهرية فهي ممارسات جسدية و الجسد للفناء و الروح وحدها الباقية في الخلود و للخلود .
قال أنطونيو ليست هناك طائرة هذا اليوم .. الطائرات ممنوعة ليس هناك مكان فارغ .. الإمريكيون السياح إستعمروا إسبانيا ، الدولار مخيف .
الواقع أن الأمريكيين و الأمريكيات لا يجيئون الى إسبانيا من أجل الفلامنكو أو مصارعة الثيران إنما من أجلكم أنتم المغاربة أنتم الذين ترفعون مستوى السياحة في إسبانيا سأقترح على وزارة السياحة و الثقافة أن تخصص جائزة صيفية تسمى بإسم عربي .
فهمت ما قصد إليه أنطونيو ، لعنت في داخلي روائيا مغربيا كتب مثل هذا الرأي دون أن يصرح به .
أنه يشتغل لصالح المخابرات الإسبانية ، إعتقد أنه « محمد زفزاف » قرأت روايته التي بعثها الي ، إستطيع أن أعطيكم عنوانه لتتصلوا به كي يبعث لكم بنسخة ، إقرأوا أيها الناس العالم مهول .
لا لن أعطيكم عنوانه فهذا سر بيني و بينه ، أنا لا علاقة لي بوزارة السياحة في بلادي .
لأن الحكومة الجديدة ألغتها نهائيا ، معها الحق .

يمكننا أن نشتغل في هذا الباب مع إسبانيا ، سأستشير صديقي محمد زفزاف .

هو أعلم بهذا الأمر و أنا أقترح على رئيس الحكومة أن يعين هذا الروائي وزيرا متعاونا للسياحة و تجارة التمور و الخمور و الأجساد .

نحن دولة المتعاونين ، المتعاونون الأجانب هم الذين يسيرون الإقتصاد و التعليم العالي و الصناعة و الدين .

كل شيئ يحدده المتعاونون سواء العلاقة ، إنسان / إنسان أو إنسان / اله .

نحن نعرف الله بعين المتعاون .

الدولار بعين المتعاون أيضا . أنا لست متعاونا مع المخابرات الأجنبية ما أريده هو الخير لهذه البلاد .

أعرف جيدا أن أنطونيو يكذب و أن هناك سربا من الطائرات المتوجهة الى إسبانيا ، الأمر فيه مؤامرة يحوكها بموافقة زوجته .

إنها موأمرة ضدي .

أنطونيو يريد قضاء ليلته في فراشي و هو يكلمني الأن أشعر برغبة في مضاجعته ،إعجبتي كذبته الغبية ،أستاذ جامعي برتبة بروفيسور يكذب كي يقضي ليلة مع صعلوك مثلي .

نام أكثر لياليه في زوائب الحيوانات ، بي رغبة جامحة الى سكر .
حين شعرت بالجوع قلت لأنطونيو ما رأيك في أن نتناول طعاما خفيفا
إني أشعر بجوع ذئبي (قلت له هذه العبارة بالفرنسية) .
بالمناسبة و أمام ضعف شخصية أنطونيو فقد بدت لي اللغة الإسبانية
سهلة لم يتردد لساني في التعبير عن أية فكرة ، إستجاب الإسباني
لرغبتي دخلنا المطعم في الطابق السادس ، أكلت كثيرا تركت
لأنطونيو أن يختار لي من اللحوبات و الأجبان و أنواع البيرة .
كان مندهشا لشهيتي أنا آكل و هو يتبعني بعينين زائغتين .
أن أعرف نيته ، في المطعم شاهدت الألمانية التي بردت في حجري حين
سمعت كلامي عن ذبح الخروف .
لم تنظر إلي تناولت وجبتها بسرعة ثم خرجت ، كانت وحيدة ، اللحظة
شعرت برغبة الى جسدها ، الذي بدا لي لهيبا ، قلت لصديقي
الإسباني الذي ، يبدوأمامي كالتلميذ الخائف .
قلت له : أنظر إنها هي ، تجاهل كلامي بقوله .
- هل تريد بيرة أخرى .
قلت في نفسي أريد تلك البيرة ، أقصد تلك المرأة التي أحتقرتني لا
لشيئ إلا لأني أذبح الخروف .

الألمان الكلاب ذبحوا العالم ، شعرت الآن بتعاطف مع دعوة اليهود المطالبة بتعويضات بهيضة تقدمها ألمانيا لإسرائيل ، كضريبة على جرائم الألمان ضد اليهود في الحرب العالمية الثانية .

تمنيت أن أذكرها بهذه الحقائق إنها دون شك حفيدة واحدة من الذين شربوا دم الإنسان .

لا يقنعني كلامها عن حماية الطبيعة ، إنها تقول بأنها من حزب الإيكولوجيين ، حزب الخضر ، لا تخلطوا هذا اللون في الذاكرة الإيرانية و الليبية بدلالاته عند دعاة حماية الطبيعية ، فلسفة الألوان تغيرت .

قلت للإسباني أريد أن أنتقم منها ، من تلك الألمانية التي يزيد طولها عن المتر و السبعين .

طولي أنا هو متر و ثمانية و سبعون إذن الأمر غير مخجل ، لوني على الرغم من ظل الشمس عليه إلا أنه الى البياض أقرب ، أنا لست عطيل ، كما صوره العنصري شكسبير .

حاول الإسباني أن يبعد عن ذهني مثل هذه الأفكار ، إنه يريد أن يقدم لي نصيحة بقدر ما يريدني لوحده في هذه الليلة التي تآمر علي فيها مع زوجته .

أه لو أمسك بزوجته سأجعلها تدخل الإسلام في الليلة الأولى .

جميع الأوربيين الذين دخلوا الإسلام دخلوه حبا في جسد بعض المسلمين الذين يتفجرون ضبا .

الإيمان عندهم هو أولا و أخيرا إيمان بالجسد .

الجزيرة العربية بحرارتها أعطت للإسلام صورة معينة و حين أنتقل الى إفريقيا لم يختلف الجو ، يستحيل أن يستقر الإسلام في الدول ذات المناخ الصقيعي .

الجيلوجيون و الجيوفزيائيون يقولون أن الأرض ستصبح صحراء و أن القطب الشمالي و الجنوبي هما في طور الذوبان ستعرف الأرض طوفان نوح .

كان الكاتب الذي صوره في ملحمة قلقامش بعد الطوفان الثاني ذكيا أو نبيا ، الكتب السماوية التي جاءت من بعد هذا التاريخ نقلت عنه ، بعد الطوفان الثاني ستشتعل الأرض حرارة ، و لن يبقى على هذه الأرض سوى المسلمون .

لأن طبيعتهم طبيعة صحراوية ، و أنهم الوحيدون الذين يقبلون بشظف العيش ، الشعوب الأخرى لا يمكنها أن تعيش بدون حضارة : و حضارة العرب و المسلمين انهم بإمكانهم العيش في القفار و المجاعة.

بعد هذا الطوفان سيعوم الدين الإسلامي على الأرض ، و تكون أنذاك القيامة .

نظرية تستحق النقاش حاولت أن أطرحها أمام هذا الأستاذالجامعي الحاصل على جائزة من فرانكو لكني ترددت

لا أدري لماذا .

حاول الإسباني أن يبعد عن ذهني الرغبة في جسد الألمانية التي لم أشعر من قبل في أن أنتقم منها .

المشرفة على البار الأمريكي في الطابق الأخير ، هي التي دلتني على غرفة الألمانية .

لقد دفعت مقابل هذه الخدمة شيئا من جسدي و في المرحاض المعطر رائحة مراحضهم أنعش من روائح عرائسنا .

يالله كم هي سخيفة المقولة : « النظافة من الإيمان » الآن أقول النظافة من الحضارة .

صديقي أنطونيو لم يرد أن يتركني وحيدا ، أنا أعرف لماذا يهتم بي الى هذه الدرجة ، في الشارع الذي نزلنا إليه اللحظة شعرت برغبة الإلتصاق بالإسباني الشارع مخيف كل ما فيه يبدو معاديا للذين مثلي ، حاولت أن أخفي هذا الإحساس عن الإسباني إلا أنني و حين لم أجد ما أقوله إستنجدت بما يدور في خلدي .

ربما هي بداية التأثر بالدين المسيحي القائم على فكرة الإعتراف .

- فرانكفورت مدينة مزعجة ، أعرف أن أنطونيو يتفهم كلماتي بكل إهتمام إلا أنه و مثلي يريد أن يخفي إهتمامه بي و بكلامي ، إذا ما أستمر في لعبة إخفاء الأحاسيس فإنه سيأتي يوم و سيتحول الى داعية إعتقد أنه مؤهل لمثل هذه المهام .

إذا سمعت يوما بأن أنطونيو أسلم و أنه وضع ماله و حياته في خدمة الدعوة الإسلامية فإن الأمر لن يكون بالنسبة الي غريبا .
لقد قلت قبل قليل إن أغلب الأوربيين الذين أسلموا هم من المرضى الجنسيين .
حينما أولي إهتمامي به ، يتجاهلني ، و حين يتجاهلني أولي إهتمامي به ، و حين أرفع عيني عنه يدللني ، و يتمسح بي كالقطة و حين يتمسح بي كالقطة أتجاهله ، إنه يفهمني ، ان به عرق عربي أو بالأصح بربري ، دون شك فأحد أجداده حفيد لطارق بن زياد .
عاد أنطونيو ليذكرني بسفرنا الى مدريد غدا الساعة العاشرة ليلا ، كان يتحدث بضمير « نحن » و كأني صديقه منذ ربع قرن .
لا بأس فليكن ، الشارع في فرانكفورات يتطلب من رجل مثلي أن يكون الى جنبه رفيق ، أي رفيق و لو كان كليا .
و مرة أخرى إنطلق في حديث عن زوجته و إبنته و ما يمكنه أن يأخذه إليها كهدية من ألمانيا ،لم يكن الموضوع يهمني ، في الحقيقة ما يشغلني الآن هو أن أنتقم هذه الليلة من الألمانية هي السبب في تورطي في هذه العلاقة مع الإسباني .
سأعذبها الليلة سأشرب من دمها .

النازية إبنت الكلب .
أبوها دون شك هو الذي كان يشرف على الأفران التي إبتلعت مليون و نصف مليون من الأطفال اليهود .
الليلة سأذكرها بتاريخها ، على أن أجمع بعض المعطيات من هذا الأستاذ ، كي أصفعها بحقيقتها في المساء .
سأعذبها سأهرب عنها النعاس .
- الى أين يا أنطونيو ؟
- الى المكتبة .. هي هنا قريبة من ركن الشارع الموازي .
- أنت لا يمكنك أن تسلم لأننا نحن أصحاب ذلك العالم حين نقطع البحر ، أول ما نفكر فيه شراء الأشياء التي تؤكل أو تلبس أو تهرب للبيع ، كنت أريد أن أحدثه عن أولائك الذين يذهبون الى الحج فيحضرون معهم جريكنات من الماء ، يقولون إنه ماء زمزم ، أنا أشك في بقاء النبع الذي تفجر عند قدم إسماعيل أو يعقوب .
أنا لا يهمني الصراع الديني بين اليهود و المسلمين و المسيحيين .
اليهود عدائيون لا لشيء إلا لأنهم تشردوا في بقاع الأرض ، عدم الثقة هي التي حولتهم الى ما هم عليه الأن أنا أعتقد و ربما هذه الفكرة لا تعجب الكثير ، إنه حان الوقت لكي يعيش أهل الديانات السماوية و الديانات غير السماوية و الملحدون بمحبة .

لأن الأرض تشرف على الموت نحن الذين قتلنا أرضنا الزرقاء .
لم أرد أن أدخل الى المكتبة مع أنطونيو ، تركته يتخطى العتبة وحده شاهدت المكتبي يحييه بحرارة ، يبدو أنهما متعارفان ، حركته حول نفسه ووراءه بينت أنه يبحث عني ، و هل اني لا أزال أتبعه ، شاهدني من خلف الزجاج أشرت له بأنني أنتظره هنا و أن لا علاقة لي بالكتب .

كنت اتسلى بالنظر الى فيترينة أعتقدت في البداية أن < المانكانة > التي تقف شبه عارية ما هي إلا دمية ، لكني بدأت أكتشف حركة جسدها المصقول من لحم حي إن قلبها يدق ، مسحت عيني
< المانكانة > تتحرك قليلا ، إنها أكثر من ذلك تبتسم لي ، يالله أنت القادر على كل شيء .
إن أنطونيو لا يريدني أن أتفرج على مثل هذه المناظر و كأنما كان يسمع ما يداخلني من ضجيج الأفكار ، ضربني على كتفي و قال لي الإسلام يمنعك من رؤية ذلك ، أردت أن أبصق في وجهه .
و أشير إلى أول سائق طاكسي ، في إتجاه المطار لكني تخاذلت .
و بالمقابل أعتت أن أنطونيو يمكنه أن يكون مسلما إن نفاقه و خبثه هما الإستعداد الذاتي للدخول في أي وقت الى هذا الدين .
سرت معه ، سلم عليه رجل في الشارع ، إنهم يعرفونه حتى هاهنا

قال لي :

- لقد حاضرت مدة سنين في جامعة فرانكفورت ، قسم تاريخ الحضارات .

لي طلبة كثر في هذه المدينة ، خاصة في هذا الحي .المكتبي الذي كنت أتحدث معه أشرفت على أطروحته التي خصصها للطوفان في ملحمة قلقامش .

حين كان يعد أطروحته طلبت منه أن يسافر الى العراق ، و بالفعل ذهب الى هناك حيث قضى سنة كاملة ، في العراق .

أحب رجلا متزوجا ، عاش معه هناك المدة كلها ، لكنها الحرب التي أفسدت عليه حياته مع صديقه و عشيقه .

لكني لم ألم يفكر في أن يسلم ، أردت أن أخفي السؤال لكني طرحته .

قال لي أنطونيو بنوع من الإستغراب ، كيف عرفت ذلك ، أضاف بل إنه ألماني مسلم .

و يقرأ القرآن و الشعر الجاهلي ، هو يفكر الآن في تحضير رسالة حول الغلمانيات في الفلسفة الجمالية الإسلامية .

سكت .

المانكانة تخرج من الفترينة ، تعوضها أخرى أكثر عريا من الأولى و أطول منها قليلا .

تمنيت أن أتفرج عليها ، إن مشهدا مثل هذا لا يختلف عن مشهد في رقصة لنجوى فؤاد و سامية جمال .

زمارة الشكنة تعلن منتصف النهار ، دون شك ستجيء زوجتي و أولادي لزيارتي نظرت من النافذة الجو مغبر ، ريح و غبار و حرارة قاتلة .

لا أجمل من شراب البيرة و السماع الى الأغاني العاطفية ، شرب البيرة لا يكون إلا مع أغاني عبد الحليم حافظ أو بعض أغاني أم كلثوم و صحن من الكاوكاو المملح .

بي مس رومانسي حتى و أنا في هذه الشكنة الموجودة على هذه التلة، للفرنسيين حكمة حين بنوها في هذا المكان ، نحن تابعون ، نحن أضعف خلق الله في قراءة المكان ، الطبيعة الرعوية العربية ، لم تترك لنا فرصة بناء علاقة حضارية مع المكان ، نحن شعب بلا مكان ، الذي لا مكان له لا سماء له .

لقد نسينا الله و نسيانه .

طلبت من الجندي الذي يحاذيني أن يعطيني < جاركانة > الماء المغلفة بخرقة من كيس الخش .

بدا الماء باردا لم يكن باردا هكذا توهمته .

مسحت فم الجركانة البلاستيكية بظاهر يدي ثم أرجعتها الى الجندي .

في فرنكفورت يسقط الليل بسرعة ، يسقط معه حزن أصفر اللون .
هذه الحالة تشبه ما يحدث في وهران كل مساء ، قال لي الإسباني هيا نرجع الى الفندق ، لم يكن لي أي جواب .
لم أرد بكلمة ، مطر بدأ يسقط يالله كم هي جميلة مدنهم بامطارها و من تحتها نساؤهم و أضواء فتريناتهم ، و شيئ ما يمشي في الهواء لا أستطيع أن أسميه .
المطر يسقط، في لحظة واحدة فتح الجميع مظلاتهم و ضعوها فوق رؤوسهم ثم واصلوا السير دون أن يثير فيهم سقوط المطر أي تساؤل ، دون أن يكلفوا أنفسهم حتى عناء شكر الله الذي أنزلها من السماء .
في بلادنا قبل أن تتغيم السماء يبدأ الناس في شكر الله و تعظيمه . حتى و كأنما الله يدرك نفاقهم فيبطل كل شيئ .
هنا الناس لا تذكر الله في المصلحة ، و إن إلهم موجود كالخطاطيف في الكنائس و في إعلانات البيرة و في أغاني الأطفال .
و حدي في كل هذا الشارع ، غيرت إيقاع مشيتي بعد أن بدأ المطر يسقط و صديقي الإسباني لم يغير مشيته ، مثلهم أحتفظ بخطوه كما كان ، إبن الكلب يستطيع أن يلعب كل الألعاب .
لست أدري من أين جاءني هذا التناقض ، فأنا أريد أتمتع بمنظر المطر من جهة و من جهة أخرى أسابق المطر كي أدخل الفندق .

أشعر أن الإسباني فرح لأني أسبقه ، و لأني مصر على الدخول الى الغرفة .

إنه متيقن أنني رهينته لا بأس الدنيا أشواط بعضها لك و بعضها ليس لك .

أفكر الآن في الألمانية التي بردت في حجري ، كيف يكون الإنتقام و المطر يسقط بجتاحني شعور فلاحي ، يخرج الآن من أعماقي يزهر بشراسة .

الناس في بلادي ، بمجرد أن تسقط أمطار أكتوبر الأولى يتنازلون عن أحقادهم يتسامحون و يشربون القهوة و الشاي معا و لا يعودون الى الحديث عن الماضي إنهم يعتقدون لوأنهم ، ظلوا بأحقادهم أوقف الله المطر .

و لأنهم لا يقتلون ضفائنهم فالله يوقف المطر بعد الزخات الأولى ، هأنذا أتنازل عن حقدي تجاه الألمانية لن أزعجها حتى لو أنها جاءت الى غرفتي و طلبت مني أن أسامحها على تصرفاتها البارحة ، سأسكت سأبكي لأنني لست القاتل .

كلامي عن ذبح الخروف جراءة في غير محلها ، فأنا لا أستطيع أن أذبح دجاجة .

سأقول لها لقد أحسن أجدادها التصرف تجاه البهود .

وسأبين لها أن العقل الألماني هو أكبر عقل عرفه الإنسان ، ألمانيا هي أم الحروب و أم الفلسفة أيضا .

سيفهمني الإسباني إذا تدخل في هذا الحديث ، أعرف أنه سيتكلم عن أسماء لا أحفظها و سيصل الى إبن رشد و يكشف العلاقة ما بينه و بين هيغل .

اذا ما أردت أن أسامح الألمانية فعلي أن أتخلص من أنطونيو الذي ليس من السهل التخلص منه ، و لكن سأحاول .

حين قال لي أعني الإسباني : تفضل : خفت ، أحسست بشيئ ما ، المطر هو الذي غير موقفي ، يجب أن أتخلص من مشاعري الفلاحية . لمحت الألمانية بطولها و أعتدادها بنفسها تدخل المقهى الذي يفتح الرؤية على الشارع ، عاودتني رغبة الإنتقام ، أستيقظ في حب اليهود ، فشعرت تجاههم بقرابة أبناء العمومة ، لأول مرة يشعرنا الألمان أن اليهود و المسلمين عليهم أن يعاملوا على قدم المساواة . أننا منبوذون مثلهم تماما ، حالنا ليس أحسن من حالهم .

لا أريد أن أتحدث الليلة في السياسة أريد أن أشرب من الخمور و أنواع البيرة و أسكر ثم ليفعل بي الإسباني أو الألمانية مايريدان ، لأترك ذلك لوقته .

دخلت غرفتي ، مسحت شعري الذي تبلل قليلا ، كنت أدرك أن الإسباني سيدق باب غرفتي بعد لحظة ، إني أسمع أنفاسه وراء الباب أو على أقل تقدير فهو يراقب الألمانية في المقهى بعد جرعاتها . الإحساس الذي أستوى علي الآن غريب من نوعه .

إرتميت على السرير بعد أن نزعت عني سروالي ، قميصي بربطة العنق التي إشتريتها من دمشق من شارع الصالحية أو من شارع جمال عبد الناصر كما يسمى رسميا لا تزال تحت ياقة القميص القطني شعرت براحة ما .

- دق على الباب .

- هذا هو الإسباني ، قد لحق بي .

الألمانية تكلم الريسبيونيست عن رقم غرفتي ، إنها تريد أن تهرب مني أو تريد أن تجبنني .

دق علي الباب .

قمت ، شكلي مضحك ، فتحت الباب ضحكت في وجهي إمرأة إفريقية إعتذرت قبل أن تقول أي كلمة ، إبتسمت ثم قالت :

- سيدي نسيت المفتاح في عين القفل .

قلت لها بإرتباك ، بالفرنسية :

-مرسي مادموزال Merci Mademoiselle

ردت بفرنسية جيدة : دوريان مسيو De rien Monsieur

في الجزائر نكره الفرنسية ، على الرغم من أننا نستعملها أكثر من اية لغة أخرى سواء داخل البلاد أو خارجها ، حتى في المانيا البعض لا يزال يعتقد اننا جزء من فرنسا .

ربما معهم حق ، اعتقد الآن و انا احدث هذه اليهودية ذات الأصل المغربي أن شيئا ما فينا ناقص .

لا زلت أنتظر الإسباني أو الألمانية ، على الرغم من أن اليهودية هي التي دقت الباب إلا أن الأخرين ، أعني الألمانية و الإسباني سيدقان بعد اللحظة ، اليهودية وجدت المفتاح فرصة كي تقتحم غرفتي بطريقة شرعية .

عيناها تقولان الكثير ، باب المصعد يفتح ، أسمعها لأن غرفتي تقابلها مباشرة ، إنهما صديقايا دون شك .

بالنسبة لليهودية كانت أنيقة و محترمة ، كان كلامها موزونا ، أنا الذي أهوم في نية كدرة .

كان عليها أن تبتسم و أن تهنأني بالعيد الوطني لبلادي أو بعيد الميلاد إن ذلك من أصول علم الفندقة .

نيتنا ناقصة ، لجعلنا نختصر تصرفات عباد الله في الإتجاه السالب دائما .

الإسباني هو الذي أفقدني الثقة في الأجانب ، إنه ليس وحده .

في الحقيقة لم يقم الإسباني سوى بتأكيد قراءاتنا عن الغرب تلك الكتب التي تصورهم متاعا للمتعة ، فالمرأة الأوربية تعرض نفسها بابخس الأثمان للرجل الإفريقي .

طز في كتابات مالك حداد و طه حسين و يوسف ادريس .
نحن شعب لحمي ، ناكل اللحم كثيرا بو حين تتوفر الإمكانيات و نتزوج ، نتزوج نساءا كثيرات . حكى لي أحد الأصدقاء أنه قرأ في كتاب ذي طابع ديني أن أحد الخلفاء قضى خمس سنوات من خلافته بين فخذ النساء ، وأنه لم ينم أكثر من ليلة بين فخذين ، حتى لا يرجع له الفخذ نفسه كان يكتب عليه بموسة حادة بيتا شعريا فاحشا ثم يطليه بالرماد ، كي يصبح وشما ، أنا لم أقرأ ذلك و الخبر على ذمة الصديق ، قال لي الله يذكره بخير ، إن هذا الخليفة قاد حروبا و هو بين أفخاذ النساء و أنتصر فيها نصرا عظيما ، صديقي هذا أصبح قائد حزب ديني يحلم بالسلطة و يقول لمناصريه أنه لم يبق بينه و بين عتبة قصر الحكومة سوى بعض خطوات .
لماذا لم يدق الإسباني و لا الألمانية باب غرفتي ، ربما إنهما أتفقا ، لقد كونا حلفا أوروبيا ضدي ، هذا ليس مستبعدا فالإسباني بدا يستثقل وجودي و الألمانية على إستعداد كي تدفعه الى إتخاذ مواقف أكثر جذرية لا يهمني الأمر ، على العكس من ذلك فهذا يريحني ..
لأنني رضعت النفاق في حليب الأم ، و لأنها رضعته بدورها في حليب رضاعتها ، سلسلة طويلة فأنا الأن أخشى أحاسيسي الحقيقية ، فأنا في الواقع أنتظرهما لا لأني أريد أن أتخلص منهما ،

أو لأنهما يثقلان علي و لكني أنتظرهما لأني أريد أن أشعر بأنني أملكهما .

إذن مادامت لم يدقا باب الغرفة فعلي أن أنزل لأبحث عنها ، سأفتعل الجوع أو أي امر آخر أفكر فيه بعد حين ، أفكار المراوغة و النفاق تجيء دون عناء في المصعد تنزل عليك اسرابا اسرابا .

اشعر بحاجة الى الاسباني ، لا تعرف قيمة الشيء حتى تفقده بدالي انطونيو لغيلما دافئا حارا و حضاريا .

سأنزل لأبحث عنه سأأنبه لانني انتظرته فلم يلحق بي و سأقول له بلهجة المتحضر كيف أنني انتظرته و انه وعدني بأنه سيلحق بي .

ارتديت سروالي ، الآن فقط ميزت لون السروال ، زرقته مائلة إلى السواد ، المعطف الذي يبدو اكبر من جسدي قليلا اشعر فيه براحة حين دفعت بي في « الهوتيون » دق جرس التليفون ، تأخرت قليلا على السماعة ، حين رفعتها كان الصوت في الجهة الأخرى من الخط ، انقطع هذا لن يكون الا انطونيو ، لا يمكنه ان يتخلى عني كل هذا الوقت ، وقد كنت السبب في تأجيل سفره .

ترددت هل أنزل أم أعود فأخلع ملابسي و أدخل تحت الشراشف الوردية التي ظهر لي الان لونها زاهيا و مغريا .

خلعت ملابسي ، رميتها فوق الكرسي بفوضى نزعت عني كل قطعة لست ادري لماذا ، دون شك انا افكر في الالمانية اكثر مما افكر في الإسباني .

مرة أخرى ها أنذا أنتظر الدق على الباب أورنين جرس التلفون ، أحسست بجسدي العاري يتململ ، تثاءبت .

هل هذا وقت النوم ، لا يجب أن افكر في النوم .

لماذا لا اقوم فألبس ثيابي و أنزل على ليل فرانكفورت على الاقل هذا هو الوقت المناسب كي اكتب بعض بطاقات بريدية لبعض الأصدقاء . إذا لم أكتبها الآن فلن أكتب حرفا واحدا . كم هي ثقيلة مهمة كتابة الرسائل للأصدقاء .

مرة كتبت بطاقة معايدة لأحد الأصدقاء ، و ظلت معي في درج المكتب فلم أبعثها إلا في أعياد رأس السنة الموالية ، ضحك صديقي كثيرا ورد علي برسالة جميلة و مضحكة ، أنا هكذا أحب أن أقرأ رسائل الأصدقاء ، و لكني أتكاسل في الإجوبة .

ماذا سأقول لأصدقائي في بطاقاتهم ؟ سأكذب لا شيئ أجمل من الكذب

مثلا سأقول :

« إذا أردت أن تعرف باب الجنة فعليك أن تتعلم الألمانية و إذا أردت أن تعرف الجنة عليك أن تزور فرانكفورت .... »

سأكتب لذلك الماركسي الذي جعلني أقضي ثلاثة أصياف في التطوع لصالح الثورة الزراعية التي كان يدعمها حزبه الشيوعي .

أنا لم أكن أمشي لوجه الفلاحين ، فإذا كان الأمر بكل هذا الحرص و المساعدة فأجدر بي أن أذهب لمساعدة الذي ، الطالبة ذات الصوت الجميل هي التي كانت تجرني خلفها بالرسن ، أنا الآن أسب صديقي لكني أقصد تلك الطالبة التي أصبحت أما وادت العمرة و أنجبت خمسة بطون .

و هي تصلي ركعتين كل يوم للغفران أنا أعرفها إنها تقوم بذلك ظاهريا أما أعماقها فهي لا تزال تكن لي شعورا خاصا ، مرة نشرت نصا أدبيا عن حصار بيروت ، فوصلتني رسالة دون توقيع و لا إسم و من حروفها الأولية عرفت أن الرسالة هي رسالتها .

تلك الليلة بكيت ، لا لشيئ إلا لأنني لم أحطم عذريتها في تلك الليلة بعد أن أصرت ، كانت تحاصرني برغبتها و كنت بالمقابل أهرب . مؤكد أنها في الصباح تمنت لو أنها صنعت من جسدي « كفتة » .

معك حق أبتها العزيزة لم يعلمها آباؤنا الفلاحون سوى الخوف و مناهضة المشاعر ، أعترف الآن أنك كنت جريئة و أنك كنت فنانة .

سأقول لذلك الشيوعي :

« أنفض عنك الأفكار الستالينية وحدق في الذي يجري .. العالم بارفيقي غير ما ترى إن الذي أمامك و هم كل الوهم ...

كتابة الرسائل للشيوعين ثقيلة لأنها تخلو من المزاح و التنكيت .

فأنت محاسب عن كل كلمة تقولها . نحن نكتب الرسائل كي نفضي بما في القلوب ، لكي نفتح أوراما أخرى ، الرسائل الى الشيوعيين تشبه فصول الأطروحات الأكاديمية ، صديق ، رفيق كان يكاتبني يهمش رسائله بمراجع و أرقام الصفحات هذا واحد من الذين جعلوني أكره و أتقاعس على كتابة الرسائل .

لماذا لا أكتب لأبي رسالة أقول له فيها ، أن الحياة جميلة في بلاد الألمان الذين أنت معجب بهم ، و الذين كنت تقول عنهم دائما أنهم لو أنتصروا في الحرب العالمية الثانية لأنتهت القضية الفلسطينية ، و لما كان هناك تشرد للشعب الفلسطيني ، أبي يحب السياسة كثيرا و هو ليس متعاطفا مع العرب و لا المسلمين ، لأني أشعر أن تأكيده على الحضارة أكثر من تأكيده على أي عامل أخر .

الإسباني لم يجئ و مثله الألمانية و التلفون لم يدق ثانية و حتى باب المصعد لم يفتح .

أو ربما لم أسمعه ، أنا متيقن أنا الحس الحضاري عند كيلهما هو الذي لم يتركهما يدقان باب الغرفة .

ربما نسيت فوضعت تلك الورقة التي توضع في مقبض الباب من الخارج و المكتوب عليها < دون إزعاج > أنا لم أعلق شيئا من هذا القبيل ، المغربية اليهودية يمكنها أن تفعل ذلك ، يجب أن أتفقد بابي ، فتحت الباب في الكولوار رائحة زكية و دفئ لا يذكرني سوى بالجلسات أمام المدفأة المازوتية في دمشق و شرب العرق ، يالله لكم

هي جميلة بعض الأشياء التي تسحبها خلفنا ، و لكننا ننساها في زحمة الأشياء القبيحة المؤلمة .

كان علي أن أملأ المصورة و أن أخذ صورا مع الأصدقاء الألمان في ليلة البارحة ، أنا أكره أن أتصور إلى جانب الآثار العمرانية كنت أحب عبد الحليم حافظ و لكني حين شاهدت صورته الى جانب برج « إيفل» نفرت منه و من أغانيه ، حتى حدثني صديق عن المونتاج في الصور ... أووف هذا الكلام زائد .

سأطلب من الإسباني أن يأخذ لي صورة عارية مع الألمانية .

إبن الكلب سيطلب هو الآخر بدوره من الألمانية أن تلتقط له صورة معي و في الوضعية ذاتها .

على كل سأحمض الفيلم دنا و سأحرق كل الصور التي قد تبقي وصمة ضدي ، الجزائريون لسانهم طويل .

يتشممون الأخطاء بحاسة شم قوية ورثوها من الكلاب ، ربما هذه واحدة من العناصر التي نسيها داروين للتدليل على صحة نظرية الإرتقاء .

يبدو لي أننا من أصل الكلاب لا القرود ، على كل هذه أطروحة يمكن البحث فيها من قبل الباحثين الشباب ، يمكنهم أن يقدموا نتائج إيجابية إذا ما تخلصوا من الحس السياسي و العنصري و الديني .

البهودية ذات الأصل المغربي لم تعلق شيئا على مقبض الباب .

إذن هناك مؤامرة ضدي ، مؤكد أن الإسباني أو الألمانية قد وجدا إفريقيا غيري ، و أنهما يطلبان له البيرة و أنواع الويسكي ، أنه يشرب و يوعدهما أن بإستطاعته أن ينام معهما في فراش واحد و أن الأمر بالنسبة إليه عادي جدا و أنه فعل هذا ذات مرة مع نزلاء فندق كامل فندق مثل هذا بخمس نجوم .

هذا الغريب سأجده يحتضن الألمانية و يغمر شواربه في كأس البيرة الذي يشبه القلة .

إنه يشرب مثل الحمار ، يأتي على كأس في نفس واحد ضاعت فرصتي لتحطم حلم الذهاب إلى إسبانيا و الإنتقام من غريمي الذي سرق مني مراسلتي و تزوجها و جعلت منه رجلا يخوض الإنتخابات و يدافع عن آراء و أفكار حزب معين ، و هو الجاهل الذي لم يقرأ مقالا سياسيا في حياته ، مرات أقول في داخلي أن هؤلاء الأوروبيين أغبياء ، ربما يبدو لي أن الدين هو السبب الرئيسي في سذاجة تربيتهم و من مصلحة المسلمين أن يظل الأوروبيون هكذا أما إذا ما أخذوا منا شيئا ، كمية قليلة من أخلاقياتنا فإن الأمر سيكون على غير ماهو عليه .

مرة أخرى ها أنذا أرتدي ملابسي ، ليست تلك التي كنت أرتديها من قبل ، لكني نزعتها مرة ثانية ، لأغيرها ، أريد أن ألبس أخرى تريحني أكثر .

اللباس لا أهمية له هنا ، في بلادي كل شيئ مبني على ذلك المنظر و ما أدراك ما المنظر .

كدت أن لا أخرج لولا أن شجعني باب المصعد الذي إنفتح ، عجوز في السبعين يصطها المصعد في وجهي .

أنسل بسرعة الى قلب المصعد لأصعد أولا الى البار الأمريكي في الطابق الأخير ، لأبحث عنهما هناك درت بين الطاولات ،الزبائن قلة ، شاب يمارس العملية بعينها مع صديقته لا أحد ينتبه له ، كل واحد يشتغل شغله .

خجلت من الطاولات بعيني ثم خرجت بسرعة .

لأنزل الى الطابق الأرضي ، يمكنهما أن يكونا هناك يشربان البراندي و يراقبان الخ .

ضاع مني باب المصعد ، دخلت التواليت ، خفت أن يكون المخصص للنساء ، لكنه ليس هناك مرا عيض للرجال . و أخرى للنساء .

الإختلاط في كل شيئ ، بلت بعد أن كنت قد فعلت ذلك قبل أقل من خمس دقائق في غرفتي .

في مطار قسنطينة أخطأت مرة لدخلت إلى مراحض النساء ، حين خرجت إجتمع حولي عمال و موظفو المطار و كذا رجال الأمن و الرجال الغامضون ، طلب مني الأول بطاقة التعريف ، إندهشت لكل هذا الجمع الغفير ، أنا لم ارتكب ذنبا فلماذا يتجمعون ، العيون تنظر إلي باستغراب خفت أن أكون قد فقدت سلطة عقلي لم أسأل أحدا منهم ، لم يكن أحد منهم مستعدا للإجابة عن سؤالي .

قرأ الغامض بطاقة التعريف ، علق بصوت نصف مسموع ، أنتم الوهرانيون أولاد < الراي > لا تفرقون بين مراحيض للنساء و أخرى للرجال آنذاك عرفت خطئي و استرجعت منظر المراحيض المملوءة بالضمادات و الخفاظات المصبوغة بدم العادة الشهرية .

خجلت من نفسي ، كل الذين بالمطار يتبعونني ، ورجل الشرطة يسوقني كالغنيمة لا أجد الكلام في فمي كي أقول شيئا لقد جف الكلام ، صار لساني في فمي كقطعة علك كبيرة .

أجلستني الشرطة على كرسي بلامتكئ ، واجهني الناس في الخارج تجمعوا يشيرون الي بأصابعهم من خلف الزجاج ، هذا هو الذي خرب البلاد لولاه لما وصلت الجزائر الى كل هذا التردي سبب الأزمة الإقتصادية و الثقافية ، إقتحام مراحيض النساء من قبل الرجال ، هذه مشكلة كبيرة ، إن البلاد في منعطف خطير ، و يجب و ضع حد لمثل هذه التصرفات التي تهدد الشخصية الوطنية .

إمرأة قالت الله يسامحها - حاول أن يعتدي علي بالمرحاض ، أخرى قالت أجبرني على أن أرفع ملابسي حدق في جسدي و لكن و الشهادة لله لم يفعل شيئا ، لمس أشياتي و لكنه لم يخرج أشياء ، إنه رجل متخلق ، و يعرف حدود الشرع .

ثالثة قالت :

ليست هذه هي المرة الأولى التي أراه يدخل فيها المرحاض الخاص بالنساء .

و أعتقد أن هناك حزبا إجتماعيا يتأسس على قاعدة دعوة الإختلاط في المراحيض و الحمامات .

أقسم لك يا أختي أن بعض الحمامات في بعض مدننا مختلطة ، الرجال مع النساء في قاعة ساخنة واحدة ، المرأة تحك للرجل ظهرة ثم تدير ظهرها له و يحك ظهرها دون أي خطر ، أخاف أن يعم نظام الحمامات المختلطة ، فيطير الرجال من بين أيدينا ، يقال أن هذا الحزب نشط بوهران ، إنها مدينة الجرأة ،لا توجد مدينة تقدر على فعل ذلك .

- إنه متوجه الى وهران .

- يتصرف مثل هذا ، لن يتوجه سوى إلى وهران .

الناس لا يزالون في الخارج ينظرون الي من خلف الزجاج ، يريدون أن يأكلوا لحمي حيا ، بالله كم هي مخيفة عيونهم ، أنا متيقن أن الكثيرين منهم لا يتجرؤون على مثل ذلك و لكنهم يريدون فعل ما هو أكثر فضيحة .

كنت أهرب من العيون أدخل في جسدي أغرس عيني في الأرض الضابط لا يعرف من أين يبدأ أسئلته ، الأن فقط إنتبهت إلى هيئته،إنه شاب في الثلاثين ، وجهه وسيم ، لا أدري هل هو نفسه الذي سأتني الى هذه الحفارة ، حذاؤه ملمع و لون لباسه متناسق

رمى الملك ذات الرائحة النعناعية من فمه ثم قال لي بصوت حضاري
- ياأخي ماذا أصابك .
-خطأ .
- بإستطاعتك أن ترتكب الخيانة الوطنية العظمى ، و لن تجد عيبونا بهذا العدد تتبعك .
و أشار الى الناس الذين تجمهروا أكثر و الشرر في عيونهم .
- الى هذا الحد ؟
- لو أختطفت طائرة و نزلت بها في إسرائيل ، لن يقول الناس عنك شيئا الذين سيتكلمون هم الصحافيون ، لا يفسرون العملية سوى على أنها مغامرة بوليسية مشوقة .
- أشعبنا أخلاقي إلى هذه الدرجة .
- إنهم ليسوا أخلاقيين ، و لكنهم يطالبون أن يقوموا جميعا بمثل الذي قمت به .
- و الله لم يكن الدخول الى المرحاض سوى من باب الخطاء و بالبتني لم أدخل لأن منظر الحفاظات المتساة مقرف ، على الأقل مراحيض الرجال فيها قليل من النظافة .
- عليك أن تبقى هنا تحت تصرفنا حتى إنطلاق الطائرة ، لأني متيقن لو أني أخلي سبيلك سيأكلون لحمك .

غيرنا الحديث بدأ الظابط يتكلم عن الشعر إنه يحب من الشعراء الفلسطينين عز الدين المناصرة ، و يسمع أغاني خالد الهبر و فرقة « الطريق » و يحب الرميتي و الشعر الجزائري لا يقنعه ، قراء لمحمد زيتلي و عبد الله بوخالفة ، و هو يحدثني بوجه مبتسم .

هل رايتم وجها مبتسما في ثكنة عسكرية ، مصطفي الذي بداء الصلع يأكل رأسه ، ما إن وصل < الشاليه > متأخرا بعشرة أيام عن تاريخ وصول دفعته حتى أستطاع أن يشكل وزنا كبيرا ، كان الجنود يخدمونه بقلوبهم يتسلقون السور المشوك الذي يحيط الثكنة ليشتروا له < الشمة > إنه يدخل القلب بسرعة ، يكسر كل الحواجز .

دار مصطفى الدنيا ، حتى دار عقله ، يفتخر كونه شرب أزيد من أربعمائة نوع من الخمور النبيذية و مثلها من البيرة .

يستعيد معك أنواع هذه المشروبات ببلدانها و أسعارها و الفصول التي تشرب فيها و المأكولات التي يجب أن تؤكل معها .

يقول مصطفى إذا لم تنم مع نساء البلد الذي تنزل ضيفا عليها و لم تسكر بخموره و لم تتة في شوارع مدنه ، فأعلم أنك لم تزره .

المدن و البلدان بنسائها و خمرها ، التاريخ و الآثار وزيارة الساحات الكبرى و أخذ الصور الى جانب البنايات المعروفة كل ذلك كذبة السواح الذين يجيئون إلى بلداننا نساءا و رجالا ، ليمارسوا رغباتهم الجسدية،

إننا في عيونهم لسنا أكثر من أعضاء جنسية و حكاية عن حكايات ألف ليلة و ليلة .

جاء كلية الآدب قسم اللغة العربية تاركا خلفه قريته الجميلة التي أسسها المستعمرون بين أحضان حقول البرتقال و الليمون و سموها « بيرقو » .

و حين إستقلت البلاد و يبست حقول البرتقال ذات الأحد عشر نوعا من أجود أنواع البرتقال ، و الذي ظل لفترة ينافس برتقال حيفا و الضفة الغربية في فلسطين التي أصبحت دولة و لم تستقل بعد .

حين إستقلت البلاد و يبس شجر البرتقال كما يبست أشجار العنب ، سمى الأهل القرية بالمحمدية تيمنا بالرسول العربي عليه الصلوات .

يقول مصطفى ، حين يكون الحب يمر العمر بسرعة مدهشة .

في الكلية تعرفت على بنات النواحي ، أجرؤهن طالبات مدينة سيدي بلعباس ، جرأتهن غريبة وصلت بهن الى حد إستقلن بجناح خاص في المدينة الجامعية .

لأول مرة أعرف أن المرأة تدخن و تشرب « الشراب » الذي يسكر .

من إختلط بالناس عرف الدنيا و من إختلط بالنساء عرف الدنيا و الآخرة .

على الرغم من أنني لم أكن أهتم كثيرا بدروسي و لا بالمحاضرات التي يلقيها الأساتذة المصريون .

إلاأنني لم أرسب في أي مقياس .
أستاذ النحو الذي طردته السلطة في البلاد لأنه بدأ يلم حوله عناصر من الطلبة و من غير الطلبة لتشكيل حزب ديني ، هذا الأستاذ حين هددني بالرسوب أطلقت عليه فتيحة العباسية ، قالت لي :
- كم تريد أن تكون نقطتك ؟
- ضحكت كان يجب أن أضحك لأنني كنت أعتقد أن هذا الأزهري لا يتحلى قلبه إلا لصوت عبد الباسط عبد الصمد ، فإذا هو يصبح مراهقا يدخل الصالونات التي كثرت بهذه المدينة .
و أغرب ما سمعته من الأزهري مناقشة لظاهرة أغنية الراي و دفاعه عنها .. آه يا فتيحة أنت قادرة على أكل الرمانة دون أن تفتحيها .
أقسم لكم بحليب الأمومة الصافي أنني حصلت على العلامة التي أردت و أنني لم أقرأ حرفا في دروس النحو ، و أن الليلة التي سبقت الإمتحان بت في غرفة فتيحة شربنا و دخنا كثيرا و نمنا قليلا .
عدوى السجائر جاءتني من هذه العباسية .
الله يذكرها بخير تكون قد تزوجت و ربما تحجبت ، و أكثر من ذلك فقد أعطت صوتها الإنتخابي لقائمة الجبهة الإسلامية للإنقاذ .
و ربما أصبحت داعية ، فتيحة موهوبة تستطيع أن تشتغل هذه المهمة بسهولة لا شيئ يقف في وجهها .

كانت العباسية تقول دائما : المرأة في بلادنا تنقصها الجرأة قبل الثقافة و التعليم و الزواج و الإنجاب و التدين و الإلحاد .

الجرأة هي رأسمال المرأة دونها تظل دجاجة .

حين كانت تشعر بأني أريد أن أتخلص منها ، خوفا من أن أرتكب معها فعلا كبيرا فأجد نفسي مضطرا للزواج بها ، كانت تقول لي و هي تقبضني من أذني كالطفل الصغير .

- لا تخف إني أريدك خارج الزواج .. أنت تنتظرك دون شك واحدة في قريتك للزواج .. ستكون معها سعيدا .

تقبلني و تسحب من على كتفي « البالطو » و تردف قائلة بعد أن تشعل سيجارتها و تسحب منها نفسا عميقا ، دون أن تفقد إبتسامتها الرومانسية التي تلائم هذا الليل الشتوي البارد ، حيث الغرفة دافئة لتنم مرتاحا .

فلم يعد هناك إحتياط من النبيذ .

تخرج مصطفى من كلية الآداب ، أربع سنوات مرت كرمشة عين ، قلت لكم الأيام الجميلة المليئة بالنساء و الشراب و الحكايات تمر بسرعة .

لأننا لا نعرف هل تكون فيها فشل أم نسمع الحكاية أو نعيش وقائعها .

رحل الأصدقاء ورحلت العباسيات و حول الجناح الذي كان خاصا بهم لى معهد العلوم الإجتماعية .

قرر مصطفى أن يحمل أدباشه و يرحل ، الأرض كروية و بلاد الله واسعة .

يجب أن أسافر إلى أي مكان فيه مكان خارج وهران .
كنت على يقين أنني سألتقي بالعباسية في أول فندق أنزل به ، أجدها تنام في الغرفة المجاورة لغرفتي ، إنه الإحساس الذي تملكني بقوة مما جعلني و في أول ليلة أقضيها بفندق « الملكة » بروما و أنا في طريقي الى بغداد أن أدق باب الغرفة التي تجانب غرفتي و فتحت لي إمرأة في الأربعين يبدو أنها هي الأخرى قادمة من بلد من بلدان الدنيا التي لا تحصى و إن إيطاليا ما هي إلا « ترانزيت » يبدو أنها متعبة ، و لكن مواجهتها لي و أسئلتها التي بدأت تسلط و ابلا على رأسي الذي لا تزال به دوخة بيرة الطائرة ، التي كانت تقدمها لنا مضيفة متحجبة كشفت لي عن فضولية هذه المرأة .
إعتذرت لها بعد أن قدمت لي « البريكا » قائلة بفرنسية مفككة يمكنك الإحتفاظ بها .
صبحتها بالخير تمنيت لها ليلة سعيدة ، ثم سحبت الباب و سحبت الباب ، سمعتها بعد دقائق تسحب « طرادة الماء » La chasse d'eau إستيقظت في رغبة دق باب غرفتها مرة أخرى و التحجج بألم في البطن و طلب مسكن ، و لكني تراجعت ، ربما لأني فقدت وصايا العباسية ، التي لم أجدها هنا في هذه الغرفة التي كان يجب أن تكون فيها ، لا أدري كيف جاءني النوم ، إستيقظت على حوار عاملات التنظيف في الرواق ، وجدتني بسرعة أنتبه الى الساعة .

أسترق السمع علي أسمع حركة في الغرفة المجاورة .
حين تيقنت أن المرأة صاحبة الأربعين أو الخمسة و الأربعين عاما غير موجودة أسرعت بأن قفزت الى الحمام فككت أزرار البيجامة بسرعة ، سال رشاش الماء باردا ثم ساخنا صرخت جسدي الذي بدا لي نحيفا ، تمنيت أن تدخل اللحظة فتيحة العباسية لتصورن لي ظهري إنها هي التي تدق ، سحبت حجاب الحمام البلاستيكي قليلا ليسترني و قلت : أدخل .
إنه صوت إمرأة ، كانت عاملة التنظيف تسألني إذا كنت سأبقى لفترة أطول .
لم تتحرج للمنظر ، أنا الذي شعرت بالخجل فهمت من إيطاليتها ، أنها غاضبة علي لأن ماء المرشاش وصل رواق الغرفة و غمر أطراف الموكيت و بلل وسطه .
كانت المرأة التي لم أميز شكلها و قامتها ، و تحدث عاملة أخرى و هي تسب العرب و المسلمين .
إنسحبت من تحت الماء أردت أن ألحق بها و أسبها أسب جدها موسليني و أذكرها بعمر المختار الذي كان السبب في إنهيار الفاشية في إيطاليا.
و جدت بداخلي إستعداد للكذب في التاريخ و الجغرافيا ،واجهت المرأة بدأت أستعد لإلقاء خطاب في وجهها بلغة وقحة .
أنا حفيد عمر المختار ، و أني بصدد تشكيل جيش إسلامي لإستعمار إيطاليا و إستعادة الأندلس .

لم يقنعني الإنتماء الى عمر المختار ، الإنتساب الى عمر الخيام أفضل فرباعيته مترجمة الى الإيطالية .

إرتديت ملابسي ، تذكرت المرأة التي دققت باب غرفتها الليلة الماضية شعرت برغبة البحث عنها ، إذن لأنزل الى المطعم ، أو على الأصح لأصعد ، فالمطعم المخصص لفطور الصباح يوجد في شرفة الطابق الأخير ، تهيبت عاملة التنظيف و تنازلت عن خطابي و عن شجرتي العائلية التي عرت فيها ما بين عمر المختار و عمر الخيام .

وجدتني و أنا أنتظر المصعد أفكر في الهيبر توموراقيا ، من أين جاء هذا العجوز ، ربما لأن شكل العاملة التي تقف في آخر الكولوار ، و ربما لبست هي نفسها التي سبت العرب و المسلمين ذكرتني بواحدة من شخوصه .

عاملة التنظيف معها الحق فالعرب و المسلمون إمتان أو أمم للفساد .

الماء البارد و كذا الهواء المنعش الذي يسري في الكولوار جعلني أتخلص من عصبيتي التي أحسن إبن خلدون وصفها و تحليلها دون عقدة قومية أو حس ديني ، ربما لأنه كان بربريا .

أردت أن أذهب و أنبه عاملة التنظيف الى أن بعض الماء سال فوق الموكيت ، كنت أريد أن أبين لها بأني حضاري ، و في ذلك أعتبرها باب المصعد هو الذي أفسد علي مشروعي هذا .

لا بأس أشرب القهوة و أرجع < البريكا >/ < الرلاعة > للمرأة التي تنام في الغرفة المجاورة .

إستقبلني مضيف المطعم بهشاشة أختار لي طاولة صغيرة ، ما كنت لأختارها ، بلطفة أجبرني على أن أقبل إختياره هذا ، بل أنني أكدت موافقتي بقولي :

- شكرا .. شكرا قلتها ثلاث مرات .

مسحت الطاولات ووجوه رواد المطعم باحثا عن المرأة كان المطعم غاصا لم زلمكن من تمييز الزبائن ، الآن فقط أكتشف أن الطاولة التي إختارها لي لا تشرف على بقية الطاولات ، الرؤية منها محدودة سارية عريضة تحجب المشهد .

المرة الأولى التي أشرب فيها عصير الطماطم و بعد أن أتيت على نصف الكأس ، تحركت معدتي و صعد قلبي الى حنجرتي ، أسرعت الى < التوالييت > أفرغت كل شيئ ثم عدت الى طاولتي أشرب القهوة بالحليب و الكرواصو و الزبدة .

رائحة القهوة المحمصة تذكرني برائحة القهوة التي تصنعها حليمة زوجة أبي التي تصغرني بثلاث سنوات .

أنا لم أترك وهران لأني لا أحبها فتلك مدينة فتنة ، كان علي أن أختار المخرج منها كي أحبها أكثر ، أنا متيقن أن الكثيرين من عرب الضعدية و وهران يربطون سفري بحليمة .

أقسم لكم أنها لا علاقة لها بالقرار .
أنني أتلذذ حين يكون القرار شخصيا .
كان علي أن أبيع السيارة التي ورثتها عن أبي ، أخي الأكبر إختار من مخلفات أبي المحل التجاري الذي حوله الى مقهى ، أما أخي الأوسط فقد فضل قطعة الأرض المغروسة برتقالا ، أنا أخترت السيارة بعد شهرين من وفاته بعتها حولت دراهمها الى عملة صعبة و إشتريت هذه التذكرة التي أرحل بها الى بغداد .
أنا أعرف أن أخوي إرتاحا حين إخترت السيارة ، بل أن أصغر هما ضحك من ذكائي ، أما أنا فلست نادما على هذا الإختيار ، حليمة هي التي إقترحت علي ذلك لأنها كانت تعتقد بأني سأركبها الى جانبي و أنطلق في الإتجاه الذي تشرق منه الشمس ثم في الإتجاه الذي تغرب منه .
أما أنا فكنت أريد بهذا الإختيار أن أقطع العلاقة بيني و بين أبي ، ما دامت حليمة موجودة في حياتي على هذا النحو .
يكفيني أنها الإرث المعذب الذي خلفه لي .

هل تريدون أن تعرفوا كيف مات أبي . لقد وجد في قاع البئر جثة بالمناسبة ، نحن لا نشرب ماء الحنفية . فمن ذلك اليوم مساء الذي سالت فيه الحنفية بالدود الأسود . أقسم أبي أن يحفر بئرا في الباحة و أن يستخرج الماء و لو كلفه ذلك بيع قطعة الأرض المغروسة برتقالا ، لكن الماء ظهر بعد عمق خمسة أمتار و نصف ، سحب أنابيب الماء المدفونة في الحائط المطل و الموصولة بحنفيات البيت ، ورماها أمام الجميع في محيح الزبالة العمومية . لم يكن أبي أعمى و لكنه سقط في البئر التي حسبها سورا بارتفاع يزيد عن المترين بمترا .
لم يدفعه أحد و أبي لا يؤمن بالانتحار فتلك أخبار لا يصدقها .
أمي تقول :
– حليمة هي التي فعلت ذلك ، و كانت بشكل غير مباشر تريد أن تدخل أنا في هذه القضية .
أنا أعرف معرفة اليقين أن حليمة لا يمكنها أن تقوم بمثل هذا الفعل المشين فهي إمرأة لا يمكنها أن تقتل و لو ذبابة .
لكني أصارحكم القول أنني أشك مرات ، لذا فالقتل بأشكاله الضارية في الوحشية يكون في الغلب الأحيان تعبيرا عن حب جارف « هند » حين قتلت حمزة عم الرسول العربي و أكلت كبده أو رغبت في أكلها و الأمران سيان . كانت تقوم بهذا التصرف كتعبير فوق طبيعي عن حب غير طبيعي و طبيعي ، معها الحق ، كان عليها أن تقوم بأكثر من ذلك .

العاشق إذا لم يستجب عليه أن يموت فورا و بطرق شرسة .
نظرات حليمة التي تزكد لي أنها تبحث عن الكيد بين أحشائي إنها تستطيع و بكل برودة دم أن تقتلني و تملأ دمي في قنينات الكازوزة و تشرب منها كل ليلة كأسا قبل أن تنام ، و حين ينفذ الدم المعباء في هذه القنينات تشرب سما و تموت و تموت .
خزرات الشاعر بريبتها تشبه خزرات المجرم في سريتها و سحرها و غموضها الضبابي لذا أعتقد و الله أعلم أن حليمة يمكنها ، بل أنا متأكد من ذلك أنها قتلت أبي ، لا لأنها لم تكن تحبه و لكن لأنها كانت تحبني حب هند لحمزة .
أنا أعتقد أيضا أنها كانت تتمنى أن تراني بطولي و لون عيوني الماثل الى الإزرقاق في قاع البئر .
إنها كانت تراني أنا في أبي مسجى على المحمل في بهو الدار.
كم هو شكاك هذا الإنسان ، مستحيل أن تتمنى لي حليمة شيئا من هذا الذي يدور بذهني ، إنها إمرأة تسأل عني أزيد من ثلاثين مرة في اليوم إذا ما قلت إن رأسي يؤلمني،تذوب لي قلبها في كأس ماء معدني مع حبة أسبرين و تقف عند رأسي حتى تتأكد من أنني لم أترك شيئا من الدواء في قاع الكأس .
تتمنى لي العافية ، تلمس جبهتي بقشعر جسدي ، تقول لي مهما كانت حرارة جسدي ، النار في أحشائك عليك أن تنام فورا ، هذه عين خبيثة .

أريد أن أضحك ، تعرف هي أنني أحبس ضحكتي ، فتتجراء للمس جبهتي و عنقي ، تطيل حركة يدها الناعمة على عنقي و تحرك أصابعها في شعر صدري .

أنظر إليها تلتصق عيناي بعينيها اللئيمتين .

تزرع إبتسامة ضوئية على شفتيها .

نسكت قليلا ، حينما تسحب يدها التي كنت أتمنى ألا تسحبها ، أتنفس بغبن أو براحة لا أستطيع أن أميز ما يدور بداخلي ، بل لا يمكن تبين ذلك ، ترد الفراش على جسدي الذائب فيها ، تسحب خلفها الباب بعد أن تنبهني الى أن قنينة ماء سعيدة المعدني عند رأسي على الطاولة الزجاجية .

لو لم تقتل حليمة أبي لكنت قتلته أنا ، كان على واحد منا أن ينسحب من الساحة أن ينتهي و إلى الأبد .

حين أشعر أن الماء على الطاولة الزجاجية أحس بالعطش ، أشرب و لا أرتوي ، لا يأتيني النوم فأنا أنتظر حليمة متى تدخل ، إنها لا ريب داخلة الآن حاملة صينية عليها كأس « تيزانا » برائحة الأعشاب القوية تدخل حليمة علي تعلم أنني لم أنم و لا يمكنني أن أنام ، أشرب من كأس « التيزانا » جرعة وارده الي الصينية التي تفضل حليمة أن تبقيها بين يديها ، ربما لأنها بذلك تشعر بشفاهي التي تشرب من الكأس موضوعة بين يديها .

نسيت ، الصينية التي تحملها حليمة بين يديها و تضعها ركبتيها عليها رسوم صينية آسيوية خرافية ، أسد يفترس غزالة .
وضعية إفتراس لا تحمل دلالات الجوع الذي لأجله تأكل ، إن في عيني الأسد شيئ أخر ، نار غير مرئية مصورة فيها ، عبقري هذا الرسام ، كان يرسم ما لا يرى .
دون ثقافة روحية لا يمكن للرسام أن يقوم بعمل متميز .
زوجة أبي حين تعرف أنني أتتبع تفاطيل الصورة على الصينية تحاول قدر الإمكان و دون أن تشعرني بأنها تتابع عيوني ، أن تعرض أمامي عيني الأسد بكل ضوئهما الحامل لجمال الجريمة و رومانسية قتل الغزالة التي بدت و هي تنشطر الى إثنين مبتهجة بهذا الموت العظيم .
حليمة تعرض أمامي المنظر و هي صامتة .
لا تسمع في الغرفة إلا نقر كعب الكأس حين يلامس صفحة الصينية التي كلما تمعنت في الغزالة و الأسد بدأ نحاسها أكثر لمعانا .
حتى و كأن لمعانة يشبه ألهبة النيران .
أشعر بالعطش ، أطلب من حليمة التي تبلغ من العمر ثلاثة و ثلاثين سنة عيناها تقول كما تقول عيون الغزالة في الصورة أن عمرها أصغر من ذلك بكثير ، أبي الذي مات في قاع البئر و الذي تتلته حليمة و لم تقتله لأن كل ما فيها لا يمت بصلة الى فعل إجرامي ، الأسد في الصورة لا يمارس عملية قتل لأن الغزالة مبتهجة .

الموت جمع، لا يمكنه أن يكون مفردا ،مفسرو < القرآن > و علماء الإجرام تنقصهم الثقافة الشعرية و التعمق في فلسفة الألوان و المساحات و الأحجام .

الموت بالجمع ، لا وجود لموت مفرد .

أبي الذي مات على كل هرمات و إنتهت الحكاية ، لكل واقعة حكايات متعددة تروى .

لأمي حكاية أخرى عن موت والدي ، أبي هذا كي يتزوج حليمة زاد في عقد ميلادها سبع سنوات ، كان ضروريا القيام بذلك فأبي قرأ المتون و جلس على حصير القرويين و الزيتونية .

لا يهم إذا كان قد تعلم تناول الحشيش في القرويين و تناول [illegible] اللاقمي في الزيتونة .

الدنيا < دنيوات > لا يمكن فصل هذه عن تلك ، و تعلم أمورها تكون بشكل متداخل و معقد .

من عيون مصطفى تشع براءة ، تلك البراءة التي تخلف الحماقات الكبيرة متبوعة بضحكة .

الجنود و الضباط و ضباط الصف الذين يتحلقون حول مصطفى يجعلون الحكاية في فمه أكثر سيولة و إندلاقا ، لا يريد مصطفى للحكاية

أن تسير في طريق مستقيم ، الطريق المستقيمة مملة .

يدخن ، يشرب من القهوة ينتقل للحديث عن عمر الخيام الذي أراد أن ينتسب اليه في حضرة الإيطالية عاملة النظافة في فندق « الملكة ».
الإحساس بالإنتماء الى شجرة عمر الخيام ليس إحساسي وحدي أنا أعتقد أن الذي أطلق إسم الخيام على ذلك النوع من النبيذ الجزائري ، يملك هو الآخر هذا الشعور ، لأن الملصقة التي تحمل إشارة القنينة و التي كتب عليها باللاتينية « الخيام » فيها من العناية المبالغ فيها . و أن الذي كتبها لم يقم بهذه المهمة بحياد بل إنه هو الآخر يحمل في خطه رغبة الإنتماء الى « عمر الخيام ».
لم يفهم الكثيرون من الجنود حديث مصطفى عن فلسفة الخط لم يكن يهمه أن يفهموا فحديثه عن الخيام كان شبه إستكمال لحديث مع الذات بدأه قبل الآن و كلما ساد الغموض حديثه كان الجنود الأميون و الضباط ذوي التعليم التقني يفتحون أفواههم إندهشا لذلك ، و ربما هذا هو الأمر الذي جعل مصطفى يتمادى في حديث غامض أكثر فأكثر .
كان يجد متعة في الإرهاب النفسي الذي يسلطه على من حوله فيخلط الكلام بالكلام حتى لا يفهم من كلامه شيئ .
ينسل من بين الجنود و الضباط تاركا في عيونهم سؤال الإبهام .

برقص مصطفى و برقص مقلدا الراقصات المصريات ثم ينطلق في الحديث عن متاهات القاهرة ، عن ريما التي تمنى أن يأكلها حية و هي تعوم في الهواء رقصا أمام سكارى الخليج الذين يملأون كاباريهات المدن المصرية.

نهار القاهرة للمصريين و ليلها لغربان الخليج أو عربانه ، كل المصريين الليليين يبيعون ذممهم و بناتهم و كل ما ملكت أجسادهم من فراغات و إنفتاحات للغرباء ، متعب هذايا غزيزي محمود أمين العالم .

قضيت سبعة أيام و أنا أنتظر دوري في طابور الراقصة ريما ، أكلت دولاراتي في الويسكي و النساء الشبيهات بريما و غادرت القاهرة ذات مساء في إتجاه روما .

كلما نزلت بروما لا أنتبه إلا بعد أن أدخل غرفة من غرف فندق « الملكة » الذي أقسم كل مرة أغادره فيها متبوعا بنظرات العجوز التي تسيره في النهار ، في الليل « روسا » هي التي تشرف عليه ، و هي بالمناسبة فتاة تبلغ الثلاثين ، طالبة في قسم الإنجليزية ، جادة و باردة ربما تكون مريضة جنسيا أو أن بها رغبة لكي تكون راهبة على سنة ثلاث عمات لها ، أقسم - أن لا أعود إليه ثانية .

أنا الآن متيقن أنني أبحث عن شيئ في هذا الفندق لا تعرفه سوى عجوز « الريسبسيون » ، ريما !!

لماذا حين أدخل روما تمطر السماء ، ثمان مرات دخلتها و في كل مرة أمطرت .

في الصيف كما في الخريف كما في الشتاء أمطرت ، كان عليها أن تمطر كي أخرج كالحلزون ، أمشي تاركا خلفي بصاقي الفضي اللون . حين أنظر الى السماء فأجدها تشخ ماء و ماء مثلجا أو من أن هناك علاقة سرية و متينة ما بين المطر و العبقرية ، مثل هذا الكلام قالته لي « روسا » فتاة الثلاثين التي تشتغل في الرسبسيون بفندق الملكة ، كان ذلك ذات ليلة فاجأتني أنفخ بخارا من فمي كالعجل على زجاج النافذة ذات اللون المائل إلى الرمادي ، قالت كلاما عن أسماء أعتقد أنها مهمة في الفن الإيطالي ، أحسست بذلك من خلال نطقها لهذه الأسماء .

في تلك الليلة على الرغم من أنها شربت معي كثيرا فإنها لم تنس مهمتها في إستقبال بعض الزبائن الذين كانوا يعودون متأخرين مخمورين كانت تعاملهم كالأطفال تصاحبهم حتى أبواب غرفهم ، أسمعها تقول للواحد منهم ، تصبح على خير .

ثم أسمع صوت باب المصعد يفتح ، حين تهاجمني خطواتها الموسقة أترك منظر المطر و ألتفت إليها .

حزنت لأن روسا جليدية و أنها تمارس كل رغباتها المشروعة و غير المشروعة بتنفير مخارج صوتها .

إنها مخلوق آخر ، ربما هي التي جعلتني كل مرة أقسم ألا أعود الى هذا الفندق و في كل مرة تجدني أدق بابه بذلك الجرس ذي النغمة المسروقة من حنجرة الكناري .

المعذرة يا عجوز الريسبون يا وجه نهارات فندق الملكة .

قال جندي أسود البشرة ، يحب ترديد أغاني عبد الوهاب الدكالي و جبل جيلالة .

-أكمل حكاية حليمة :

- أي حليمة تقصد ياصابور ،كان علي أن أبدأ لكم الحكاية من الأول فحليمة بغبائها هي التي بعثتني الى بغداد ، لم أكن مطلقا راغبا في الذهاب الى هذا البلد على الرغم من كل الحب الذي أكنه للمنصور .

إنه شعور غامض يشبه الشعر أو لذة الحكاية ، أحكي لكم بصراحة . أن عضوي الجنسي أنتعض أول إنتعاضة شهقبه في حضرة لذة الحكاية ، فحليمة أمي التي كانت تحكي و هي تعرف فن الحكي على أصوله لا كمجايلينا الذين أفسدتهم أخبار الجرائد ووسائل الإعلام المرئية و المسموعة .

كان على أمي أن لا تعلمني غواية الحكاية ، و كان على أبي أن لا يتزوج من حليمة التي تشبه أمي في الإسم .

جمعت حليمة ، لي أدباشي في حقيبة ، و جمعت حليمة أمي أدباشا أخرى في حقيبة ثانية ، أما أنا فكان علي أن أرحل أن أغادر

‹المحمدية ›

محملا بعطر أحدى عشر نوعا من البرتقال . لم يكن أمامي خيار آخر طردتني أمي الأخرى التي تشبه أمي أنها ليست أمي مرات تحاول أمي أن تقلد صوت حليمة كي أنتبه الى فحوى كلامها جيدا . أن في قلب الأمهات قوة غريبة . و مرات كانت حليمة الثانية تقلد صوت أمي حين يكون الموقف يحتاج الى حديث لا بلاغ فكرة ما .

كان في أمي شيئ ما و كان في حليمة شيئ ما .

خرجت أتبع ظلي و ظلالي و لأول مرة أشعر أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بدون ظل . و إنه هو رأسماله الذي يذهب معه حتى القبر و الذي يفني معه .

بالله كم هو طويل ظلي .

و كم هي ضيقة الطريق التي رأيتها البارحة عريضة و ها هي السماء على متر من رأسي .

أحس بالإختناق و الإحتراق .

أتمنى أن أترك الطريق في أول وسيلة نقل أركبها .

أرى ما بداخلها دون أن أفتح عيني و دون أن أكلف نفسي عناء صعب السلسال .

هذه حقيبة أمي فيها ثوبي الأزرق و المربع و المخطط و الأبيض الثلجي الذي تحبه كثيرا و تطلب مني أن ألبسه حين أنزل الى وهران

يوم السبت ، لأن السبت يليه الأحد و في ذلك اليوم لا بد و أن ألتقي تلك العباسية التي لأجلها سرقت مني أمي اللسان فحكيت لها عنها كل شيئ ، ليس كل شيئ لأن أفعال العباسية لا تحكي لأحد ، إنها أقوى من صهد الكلام ، إن حكاياها يجب أن تعاش بالقلب .

أمي كانت تحب العباسية ،إنها لم ترها و لو مرة واحدة .

حاولت كثيرا حين إضطررت إلى الإتيان بها لزيارة طبيب الأعصاب .

قالت لي : لماذا لا تحضر العباسية كي تقف بجنبي أمام الطبيب كل أطبائنا يتكلمون الفرنسية ، أنا لا أفهم من كلامهم شيئا ، أنت تعرف يا إبني هناك أمراض خاصة بالنساء الحديث فيها مع الأبناء حرام .

وجدت الجواب على الفور بعد أن أدركت نية أمي وأصرارها على رؤية العباسية .

-إننا في فترة الإمتحانات و العباسية يا أمي لا تترك كتبها حين يعلق جدول الإمتحان .

سكتت أمي بعد أن بلعت جمرة في ردي ، أنا أعرف أنها تقسم بداخلها لو أنها توصلت الى التعرف على العباسية لباعت حلقات أذنيها و أساور معصمها و تشتري لها بمقابل هذا الذهب السجائر و النبيذ و الوسكي ، فقط تطلب منها طلبا واحد هو أن تقبض علي بين فخديها و لا تتركني أنط بين فخذي حليمة .

إن بأمي شيئا ما تجاهي إني أشك في حركاتها و أشك في طريقة لمسها يدي و عنقي و إدخال أصابعها في شعر رأسي .
ياالله كم أنت كبير فلتبعد عني شياطينك ، أقسم لك بالنون و القلم و ما يسطرون أن أصوم رمضان القادم كاملا حتى و لو عبد الناس في التاسع و العشرين منه .
هذا وعد مني فابعدياالله شبح أمي عني أني أخاف نفسي من نفسي.
حقيبة حليمة تحوي بيضتين مسلوقتين و منديلا و ملعقة صغيرة كانت تركلني بها العسل الحر كل صباح .
و بها أيضا زربية كنت أفترشها عند عتبة البيت حين يكون الحر قاتلا على الزربية صورة طاووس بريشها الملون الهائج ، لكني كلما أمعنت النظر في شكلها و مشيتها أكتشف برودة الرسام
و تكلفه لا أدري لماذا ؟
في الحقيبة أيضا قنينة عطر بدون ماركة رائحة من رحيق البرتقال ، و هناك أثواب داخلية و دون أن أدقق النظر في هذه الملابس كنت أعرف من بينها بعض قطع ثيابها الداخلية ، أعرف ماذا أختارت كي تعذبني ، الثنائية التي عليها طرزة لسمكة سردين صغيرة ، لكم كانت تعجبني تلك السمكة التي فوق نهد السمكة !
وأنا متيقن اليقين الذي لا يرد أنها خبأت هناك أيضا « سليبها » ، الذي مزقته ذات ليلة بأسناني و باتت حليمة تقهقه ، و قد أحتفظت به هكذا ممزقا و كانت كلما أرادت أن تثيرني تلبس هذا « السليب » .

و دون أن تقول لي إنها تلبسه أعرف أنها تلبسه ، أنه هنا في الحقيبة ، عذاب يا حليمة < قال الرسول محمد بن آمنه : السفر قطعة من عذاب >. مشيتها و حركات عينيها ، و إنعكاس أشعة الشمس على صفحتهما و غرغرة دمعتين زرقاوتين في طرفيها الأيسر و الأيمن و نزول الكحل الكحلي قليلا كانت تؤكد لي أن حليمة تلبس ذلك الذي أفكر فيه .

أننا مثل الحيوانات نعرف الأنثى الطارد من رائحتها و من حركاتها لحليمة رائحة خاصة ، أجمل ما فيها أنها تتهرب مني و لا أراها مدة نزول الدم ، كنت أعراف أن بها ذلك ، كلما أبحث عنها فلا أجدها . أعرف أنها ذهبت لزيارة أمها لا لة خديجة ، سأحدثكم فيما بعد عن لالة خديجة .. إن لها حكاية جميلة .

في البداية كنت أتسا لم عن هدف زيارتها لأمها خديجة و لكني عرفت كل شيئ ، فيما بعد و لم أعد أسأل ، بل أني بدأت أعرف جيدا اليوم الذي تذهب فيه و اليوم الذي تعود فيه ، مرات كنت أنا الذي أذكرها بذلك خوفا من أن يسيل دمها منها في دارنا فتنبعث رائحة كريهة منها فأتقيأ و لا أستطيع العيش داخل أسوار هذا الحوش ذي الهندسة التركية .

الحمد الله لم يحصل شيئ من هذا القبيل وأني لم أشم يوما ما رائحة دمها .

إن حليمة شاعرة لا تكتب الشعر .

لالة خديجة إمرأة في الخامسة و الخمسين بجسد ناحل بالألغاز التي لا نفكها سوى أنها لا تكتب الشعر لأنه فقيه يكتب الحروز و [illegible] القرى

و إنتفاخ الأوداج و سقوط الأذنين و الهلاغم و التقبيحات الخبيثة و لكن لأن بينهما حكاية .

في ذلك المساء لم يكن أبي يتوقع أن يجد خديجة عند عتبة البادية تنتظر دورها أمام شهاك الحالة المدنية ، كانت نظرة واحدة إليها كفيلة بأن تصرعه و تدخله فراش المرض ستة شهور متتالية ، أبي ليس بطلامن الأبطال الذين يقرأون عنهم الخرافات العربية عن العشق مؤكد أنه حفيد لعمر بن أبي ربيعة و لكن أبي و على الرغم من أنه يحب الشعر خاصة قصائد المتنبي و كعب بن أبي زهير إلاأنه لا يفكر بتاتا في عمر إبن أبي ربيعة و لم يقرأ له شعرا .

كانت الستة أشهر كافية كي يجمع عن المرأة التي رآها من أفواه زواره الذين تهاطلوا عليه يوميا من كل القرية و من خارجها ، كان أبي يسل لسان الزائر سلا فإذا وجد خيطا يوصله الى الواقفة أمام الشهاك يستبقيه للعشاء و إذا لم يجد في رأسه ما يوصله اليها يفتعل ابي النوم إنذاك تدخل امي مصحوبة بأمها أي جدتي التي ماتت يوم تزوج ابي بحليمة .

لم تكن جدتي التي تتكلم البربرية أكثر من العربية تحمل الصينية ، فينسحب الزائر .

قام أبي من مرضه حين أدرك أنه سيصل بسهولة الى تلك المرأة .

تعرف عليها ، لالة خديجة زوجة شهيد ، يقال أنه لم يمت إنما تزوج فرنسية أعجبت بشجاعته ، فطلبت من أبيها القاضي أن يطلق سراحه ، و هو ما فعله أبوها الذي زوجهما و أرسلهما الى « ليل » بالشمال الفرنسي حيث يعيش هناك .لالة خديجة تؤكد أنها شاهدته في المنام و أن أحلامها لا تكذب .

لم تعد تفكر فيه لقد أنساها ابي وجه الشهيد الذي لم يعد شهيدا ، ابي هو الذي ملء رأسها بالأحلام ربما أنه كتب لها حرزا من حروزه التي لا تخطئ هدفها .

إنتفخت حكاية أبي و لالة خديجة ، قالت أمي إنه تزوجها ، طار عقل جدتي لهذا الخبر ، و لم يعد في رأسها سوى بعض العجين الشبيه بالمخ هل يمكن للإنسان أن يفكر بالعجين الخامر في الرأس بديلا عن المخ ؟ تركت أمي الدار و ذهبت بأمها الى الولي الصالح زورتها الضريح و ذبحت ديكا و تيسا ، أقسمت أمي إلا تأخذ معها أحدا منا ، أختي التي تبلغ ثلاث سنوات تركتها تطن كالنحلة ، لم يلن قلبها قالت لنا ، لتأخذه هو و هؤلاء هم أولاده ، ليدخل عليهم لالة خديجة تربيهم و تطعمهم .

الرجال يغدرون ، فيهم عرق من الكلاب .

كانت أمي ساخطة ، رذاذ فمها يتطاير تسب و تقسم ألا تعود الى هذا البيت الذي تمنت أن يسقط على رأسه و على رؤوسنا جميعا .

لم أكن أتوقع أن تصل درجة غضب أمي الى هذا الحد .
أنسحبت الى غرفة في أقصى الحوش و بكيت طويلا . ثم سرقني النوم و بي عطش . كنت أريد أن أتبع أمي و لست أدري لماذا ؟
شيئ ما غامض كان ينفجر بداخلي و هي تبتعد، ربما هي الأخرى شعرت بذلك أيضا . عادت مسرعة جرجرتني خلفها . إستسلمت لها . الليلة الأولى قضيتها عند واحد من أخوالي . رجل طيب كان يكلم أمي بجهة . و يعرب لها عن موقفه الى جانبها مادامت أخلاق ابي قد فسدت .إلتزمت الصمت ما كان يجب أن أسكت و لكني شعرت أن أمي لم تكن رغم غضبها و نقمتها على ابي موافقة على كل ما تفوه به خالي . الليلة الثانية قضيناها ببهو ضريح لواحد من أولياء الله الصالحين و أسمه (سيدي ميمون) .
كانت أمي تبخر جدتي التي إنهارت صحتها و أسود لون وجهها في ظرف ثلاثة أيام . كانت جدتي تصرخ و تصرخ حين تمتلئ رئتيها بالدخان الثقيل أما أنا فقد إنسحبت الى خارج الغرفة التي بها بنى الضريح . كان هواء الخارج منعشا و حين أحسست ببرودة ما تدخل عظامي . عدت الى الداخل .
وجدت أمي قد أفرشت لي لحافا عليه بطانية خروف بلونين الأسود القليل و الأبيض الغالب . و لا غالب إلا الله .

و بسطت لنفسها الي يميني لحافا أخر مهترئا و تمددت ، أحسست بعظامي تستقيم الواحد الى جانب الأخر قربت أمي من رأسي « غراف» الماء و قد غطته بغطاء رأسها الذي بدالونه القرنفلي واضحا ، الآن ها هي جدتي قد همدت لم تعد تصرخ ، أنفاسها تهبط قليلا ، حتى أصبحت لا تسمع أو هكذا خيل لي ، رائحة التبخير إنسابت من بين شقوق الباب اللوحي المهترئ المسوس نسيت أننا ننام في ضريح . حين أخذتني عيني ، كنت أدرك أن أمي تراقب جدتي و أن النوم قد هرب عن عينيها .

لم يعد لجدتي وجود ، ما عدت أسمعها ،أمي تلمس وجهي و تتيقن من أنني نائم ، تفتح أمي باب الضريح ، تجنجع مفاصل الباب فتفضحها فتمضي الى خارج ، لقد هرب للفور عني النعاس ، الآن فقط أدرك أنني نائم بضريح ولي صالح .

أكثر من ذلك بجوار جدتي ، التي لم تعد تميز بين الأشياء ، و ما عادت تستطيع أن تلجم لسانها عن قول كثير من الكلام المخجل الفاحش .

بدأت أنتظر عودة أمي ، الباب الذي سحبته خلفها أثار في إحساسا غريبا ، أختفت خطوات أمي في الظلام الذي بالخارج .

ظلام أسود ما في ذلك شك تصورت الرجل النائم في الضريح يقوم من مقامه، يردت رجلاي ، ناموسة حرنة تحوم بالحاح أمام وجهي .

أضطر الى أن أنشها بيدي التي شعرت بها ثقيلة . أمي لم تعد من الخارج توقعت أنها تكون قد خرجت لقضاء حاجتها . فخالي الذي رافقنا من القرية حتى الضريح لم يبتعد عن أخته شبرا . لأن بعد أن ذبح الخال الديك والتيس الأسودين ، عاد الى القرية على دراجته النارية . لأنه ،و كما قال الليلة دوره و حصته من الماء في سقى أشجار البرتقال .

أمي ما فتئت تنتظر ذهابه . لا حظت ذلك جيدا فقد كانت تذكره كل لحظة بأن الشمس أوشكت على الغروب و أن عليه أن يرجع الى الدار قبل نزول الظلام . فقد يفسد ضوء الدراجة فيتعب في الوصول . ذكرته بذلك أكثر من سبع عشرة مرة و عاد خالي الى الدار قبل الغروب قالت له أمي و هو يهم بإقلاع الدراجة النارية لا تهتم بأمي ستكون في الصباح على أحسن ما يرام غاب خالي في أحواض أشجار الزيتون .

النوم هرب ، ما عاد رأسي يؤلمني و قد شعرت بشيئ من هذا القبيل قبل أن أنام .

مكوث أمي الطويل في الخارج أقلقني ، سمعت حركة أخذت أتتبعها لكن لا شيئ إنها الريح و لا شيئ غير الريح .

كان علي أن أنفض جسدي من هذا الفراش و أخرج لمواجهة الظلام إذا ما وجدتها تقضي حاجتها سأفتعل أمرا ما كان أتقيأ و أقول لها -غلبني قلبي ياأمي .

و كما فعلت أمي و كما في الأول جفجغ الباب ،ها هو يجفجغ مرة أخري .

كان الفضاء جميلا شعرت كأنما تخلصت من حصار الضريح و من صمت جدتي الذي قد ينفجر في كل لحظة .

أردت أن أقتحم الظلمة ، لكني تراجعت خجلا من أن أجد أمي تقضي حاجتها ، تراجعت الى الخلف حتى لا مست ظهري حائط بناء الضريح الأبيض ببياض غطته الغبرة الحمراء و الرمادية .

قليلا توقفت ، تفرست في صمت الظلمة ، لا شبح لا شبح و لا حركة أردت أن أنادي بصوت خافت أمي لكني خجلت ، لست أدري لماذا . قلت ربما [illegible] قد عادت الى فراشها و لم أنتبه لذلك ، فتحت مرة أخرى باب الضريح و كما في المرتين السابقتين جفجغ الباب ، جدتي في صمتها لامست فراش أمي و لا أحد هناك ، إنسحبت مسرعا متخذا قرار البحث عنها ، غرقت في الظلمة ، مشيت بضعة أمتارا فإذا بي و سط حقل من شجر اللوز شممت رائحة الدخان ، إن أحدا هناك ، تحمحمت و كحكحت معلنا أني هنا ، لم ينتبه الي أحد لم أنتبه لأحد وواصلت توغلي في الظلمة ، إذا بي أمام أمي عارية تماما ، كانت جالسة في حجر رجل لم أعرفه ، لم تجد أمي مهربا ، لكنها وجدت الكلام الذي تواجهني به معنفه : « ماذا جئت تفعل هنا أتركت جدتك لوحدها ؟»

كانت أمي تتكلم دون حرج ، تراجعت في الظلمة ، دخلت الضريح سترت رأسي بمعطفي لا مست جدتي كانت هادئة و يابسة ، إقتربت منها أكثر ما عاد إحساس الخوف منها موجودا وضعت ذراعي على عنقها ، و فتحت عيني في الظلمة ، أنتظر جغجغة مفاصل الباب يعلن عودة أمي .

الرجل الذي كانت في حجره و بين ذراعيه لم يتكلم ، إلتزم الصمت ، أمي هي التي أمرتني أن أعود إلى جدتي ، جمد لساني في فمي شعرت به كالخشبة ، كان علي أن أقول شيئا كالكلام أي شيئ يمكنه أن يقال في موقف مثل هذا الذي وجدت فيه أمي .

كان علي أن أسألها أن أستفسر ، أن أسب ، أن أبكي ، أن أطلب نارا أشعل سيجارة ، أن أقتلها و أشرب دمها ، لكني لم أقم بأدنى حركة .

إستجبت لكلام أمي عدت ، ها أنا في الضريح أشعر بمحبة للذي بداخل القبر ، أنتظرت طويلا ، لم أنم ، ما كان بالإمكان أن أنام سمعت الرجل يكلم أمي التي غرقت في ضحكة جميلة .

سكتا فترة ثم صبحها بالخير ، فتح الباب تظاهرت بالنعاس ، و أنا أعرف أنها تدرك جيدا أنني لست بنائم .

قدد ت أمي على فراشها شعرت بها تتصنت على أنفاسي .

و كأنما تتأكد من أنني لا أزال صاحيا بالفعل .
فكرت لحظة في أن أقتلها و أرمي بها داخل القبر قبر سيدي ميمون صاحب الكرامات .
بعد أن تمددت أمي شعرت الأعياء بأكل مفاصلي ، فنمت ، و بعد لحظات سمعت أمي تصرخ ، كانت الشمس قد طلعت و إذا أمي تكتشف جدتي ميتة في صمتها ، سحبت أمي ذراعي من حول عنق جدتي التي بداء جسدها يابسا بدون روح ، لم أتكلم لم أبك تحولت أمي أمامي الى جسد .
جاء الناس من كل جهة ، ثم أخبر أخوالي فوصلوا حوالي الساعة العاشرة ، الصغير فالأصغر فالوسط فالكبير فالأكبر .
كانت أمي تقول لهم إنها رفعت لها الشهادة ثلاث مرات و أنها سمعت صوتا رخيما يخرج من القبر يردد معها الشهادة ، و بدأت تقول لأخوالي بعض الوصايا التي قالت إن جدتي أكدت عليها مرات ثم قالت لخالي الذي رافقنا البارحة أن جدتي أوصتها أن تعود الى دارها مهما كلفها ذلك .
تتكلم و تأكلني بعينها أنا أعرف أن جدتي ماتت و لم ينتبه إليها أحد .
لم أفهم لماذا أعادت أمي على مسمع خالي وصية جدتي بعودتها الى أبنائها

كلما مرت أمي بجانبي أشتم منها رائحة لا تزال عالقة في أرنبة أنفي، رائحة تشبه تلك التي تعبق من مصنع الدباغة الموجودة بوهران ، هذه المدينة التي أحبها بنوع من الغموض .

حين أفكر في وهران أجد نفسي أفكر في العباسية .

أستسلمت أمي لحزن أزرق كانت تبحث عن الفرص المتعددة كي تبادلني الحديث .

طلبت مني أن أجمع الأدباش و أهيؤها لمجئ سيارة الجي < 5 > التي يملكها أحد الجيران لنقل جثة جدتي التي أشعر الان نحو صمتها بحب و أخيرا جاءت السيارة ، لفوا الجسد الذي بدا بطوله أطول من طوله في < بورابح > مخطط بالأزرق و الأحمر و الأخضر ، المصنوع من صوف حر مخلوط ببعض القطن سحبوا المحمل من خلف ستارة كانت تنسدل على الضريح من الجهة الشرقية مددوا جدتي فوقه ، صرخت أمي ذكرتني بصوتها و هي في حجر الرجل الذي لا أعرفه و الذي كان هدئا يلعب ببطنها و بفخذيها و هي تتأمل و جهه تاره و تتأمل السماء التي إختفت خلف الظلام ، أخرجوا جدتي من قبة الضريح ، ناول خالي المشرف على القبة دراهم إلتقفها الثاني بطريقة عرفت من خلالها أن المبلغ الذي ناوله إياه كان معتبرا .

وضعوا جدتي في بطن السيارة ، قالت لي أمي أصعد لنركب معا بجوارها ، فإن لنا في ذلك أجرا في تلك الدار .

قلت لها :

اركبي أنت و خالي الأكبر أ ما انا فسأركب مع خالي الأصغر على الدراجة النارية ، شعرت الآن و كما في كل أحاديثها منذ أن اكتشفنا موت جدتي انها خائفة مني و أنها تريد أن تشتري محبتي ، قالت بنوع من الحزم :

- قلت لك يجب أن تركب إلى جواري خالك أحمد لا يحسن سياقة الدراجة النارية براكبين .

واجهتها بحده رفعت صوتي رافضا أمرها ، استسلمت لكلامي ، ومن يومها لم تعد تلك التي تأمرني فأستجيب لأمرها دون تفكير لقد تحطمت سلطتها و ها هي تريد أن تشعرني بأنها أمي ، نعم أمي ... شعرت بأنها كانت خائفة ، من أن أفشي باسرار الليل لخالي ، حين دارمحرك الدراجة و التصقت بخالي محيطا خصره بذراعي وامي تصرخ اقبض جيدا حذاري من الانعطافات ، ثم وجهت الكلام لخالي قائلة : أحذره انه يدوخ .

لاأدري كيف تعرف أمي بانني أدوخ ، ربما كانت تريد أن تقول شيئا ما فقط .

قلت لخالي أريد أن أرجع إلى الدار إنني أخاف حفلات الموت و أكره البكاء على الموتى ، سكت خالي قليلا ، ثم وافق دون أن يبدي أي اعتراض قفزت من على الدراجة ، توقف خالي قليلا حتى تأكد من أنني دخلت الدار دون أن يعرف من فتح لي الباب .

لم يكن الوجه غريبا ، على الرغم من انه لم يسبق لي أن رأيته ، هل اخطأت الدار و قد دخت كما قالت أمي ، لا يعقل هذا ، فالصورةالتي تتصدر الحوش للكعبة المشرفة و طواف الحجاج حولها بآياتها الحكيمة و بعض التبريكات ، هي دارنا ، كانت الحركة غير عادية في الدار بطانية خروف بصوفها الأسود و الأبيض معلقة في السلك الذي يقطع فناء الحوش ، ان شيئا ما يجري في بيتنا ، في غياب أمي التي باتت ليلتها على طريقتها الخاصة .

اندفعت نحو الغرفة التي انام مع اخوتي الذكور ، وجدتها غاصة بالنساء انسحبت بسرعة ، صادفت أختي الكبرى التي تشبه أمي في و قفتها باستقامة ظهرها و انفراج بين رجليها ، وخصلات شعرها المتدلية بفوضى خلفها ، حين اعادت لي صورة امي حاولت أن اهرب و الا أواجهها ، لكنها لحقت بي ، مسكتني من كتفي سحبتني إلى صدرها ، قالت لا بأس ، لم افهم شيئا ، ثم اضافت ، اننا سنجعلها في مكان امنا ، انها طيبة و ستخدم والدنا و تخدمنا .

لم أفهم شيئا لكن اختي و لانها ذكية ، فقد ادركت أنني لم أفهم شيئا فأعادت الحكاية لم يكن امام ابي خيار اخر ، اما ان يتزوجها هي ، أو يتزوج امها ، ابتسمت اختي ، لامرأة جملية ، مرت بجوارنا تجر لباسا وهرانيا يلف جسدها الذي يشبه التماثيل الشعبية ، قالت اختي

موجهة كلامها لي بعد أن أطالت الإبتسامة : هذه هي حليمة .
أختي بليدة لم تستطع أن تحكي لي الحكاية بدقتها الحقيقي ، حليمة كانت جريئة ،أكثر من أختي ، حكاية أبي هي التي أوصلتني الى هذا الذي سيأتي ،أمي هي رأس كل المشاكل .
قالت أمي لأخوالي الثلاثة بعد أن سبعوا قبر أمهم الآن علي أن أستجيب لوصية المرحومة ، سأعود الى بيتي و أولادي .
أخوالي أبدوا بعض التحفظ ، لكن أمي كانت مصرة أقسمت أن تطرد حليمة في اليوم الثالث ،أصغر أخوالي قال لها :
أتركيه و مراهقاته ، سيجيء ذات يوم للبحث عنك طالبا السماح .
لكن أمي لم تمهل أحدا كي يعبر عن رأيه إذ تركتهم و إنطلقت الى دار أبي من المقهرة مباشرة قالت :
هكذا قالت المرحومة :
قال خالي الأكبر : على كل هم أبناؤها و تلك دراها .
حين دخلت أمي بوجه مورد ، وجدتني أشرب الشاي المنعنع مفترشا بطانية و حليمة تواجهني بيدين رقيقتين ، تقسم خبز المخلع قسمين فيسيل الشحم المذاب فتنفض يديها و تبتسم .
لم تقل أمي شيئا يبس كلام في فمها لم تحينا ، بلعتها الغرفة الموجودة في آخر الحوش .

https://facebook.com/groups/abuab/

كانت مقفلة ، أخرجت المفتاح من صدرها ، سمعتها تنادي على أختي التي أفتعلت سببا للخروج ، عند الجارة كي تترك لي المجال مفتوحا كي أحدث حليمة ، آكل من يدها الخبز اللذيذ .

أنا أعرف أنها تريد أن تنتقم من أبي .

كانت حليمة تلح علي كي أشرب كأس الشاي الثانية فهي خير من الأولى والثالثة خير منهما ...

تقول حليمة و ترفع صوتها كأنما كانت توجه الكلام لأمي ...

-إذا كان ساخنا فهات كأسك أبرده لك ، لقد أصبحت من لحمي.

أختي عزيزة هي التي تآمرت علي مع حليمة التي لا تكبرها سوى بالقامة .

لأول مرة أنتبه الى جسد حليمة ، كان هو الأخر ذائبا كشحم الخبز ‹ المخلع › .

إذا كانت أختي بخروجها قد أفسحت لي مجالات المغامرة ، فدخول أمي كسر في داخلي كل شيئ أنا أفهم أمي جيدا ، إنها الآن في غرفتها تخطط ، و حين تبدأ الهجوم لن تخسر الحرب ، إنها تبدأ إذا أدركت أنها ستربحها دون أدنى خسارة .

أمي تفهم لعب النساء جيدا لكني أقول لها ، إنك لا تربحي معركتك ضد حليمة ، سأكون الى جنبها ، سأشن الحرب التي لا تتوقعينها .

حسابك الخاطئ هو أنك تعتبرينني أبنك الذي لن يفتح نار مسدسه ضدك سأعرف كيف أحارب لأنها الحرب التي أدخلها بإيمان في النصر.

سأسحب منك لسانك ، سأحولك الى خادمة تغسل كل مساء قدمي حليمة و تغسل لها كل ثمانية و عشرين يوما خرقها المغمسة في دم الحيض و في دم النفاس ، هكذا ستنتهي الحرب و إلا خرجت من هذه الدار و تركتها لي أن و حليمة و ظل الحائط المزين بفروع الدالية التي يتأخر نضج ثمارها حتى شهر جانفي ، و تتركين أبي فرحا بفراش حماته أم « حليمة ».

قالت حماة أبي و هي تبكي و تمضغ العلك أو السواك أو عرق السوس.

لا تتركني ، و هذه حليمة هدية لك خذها زوجة أو خادمة

و لا تتركني فأنفاسك هذه التي تشبه النسيم دونها لن أعيش ، لم يكن أبي قد إلتفت الى حليمة ، أمها هي التي أثارت فيه الإنتباه إليها حين حاولت حليمة أن تهرب منه لم تجد فسحة .

أمها كانت تحاصرها و مراهقات أبي كانت تجعله يتورط أكثر في إتجاه هذه الفتاة التي لا يتجاوز سنها الخامسة و العشرين .

بدأ أبي المغامرة حين طلب من حليمة و أمها أن يناما معه في فراش واحد ، قالت حليمة :

-كان أبوك و أنا الصغيرة الملتهبة في الفراش ، أميل الى أمي ، كنت أشعر به تجاهي باردا ، أقسم إخوتي أمامنا ، أنا و أمي ، أن يذبحها أمي من رقبتها إذا ما هي قبلت الزواج من هذا الرجل .

تراجعت أمي حزنت أنا أيضا حين شعرت بأمي تبرد نار جسدها الذي رأيته في الليالي يلتهب في حضرة الرجل الذي أصبح زوجي ، على سنة الله و رسوله ، غصبا عن حليمة التي تحمل أسما مثل أسمي و مثله إسم إمرأة أرضعت الرسول ، و التي تغنيها في أعياد الميلاد النبوية أكثر ما تغني آمنة أمه .

هو التاريخ فرض ، الشهرة أيضا فرض و ربما حظ كما تقول أمي .

نالت حليمة التي لا تكبر إلا بالقامة أختي و هي الثالثة في الترتيب من ناحية الإناث و الخامسة من ناحية الأخوة جميعا كان على أبيك أن يختار ، أن يحتال كي تظل أمي في حجره .

فأبرم إتفاقا بينه و بين أمي على أن يتزوجني أنا ، على الرغم من صغر سني ، الذي لم يثر أي تردد أو تساؤل لدى أخوتي الأغنياء .

المهم قالوا :

-نضحي بأختنا و نحفظ شرفنا بالزواج ، و نحفظ أمنا من القيل والقال .

كنت أعرف و أنا متيقنة من ذلك ، زنهم جميعهم يقولون في سرائر أنفسهم لتأكلهما البحار و المحيطات حين يكون الأمر شرعيا على سنة الله و رسوله .

كلامهم غامض و لكني متيقنة أيضاأنهم يقولون :

- الآن إذا ما جاء الدار أو قضى ليلة مع الأم بحجة أنه صهرها فليس للناس حق في الكلام ، إنه منا .

تقول حليمة و هي جالسة عند قدمي تنتظرني كي أنتهي من شرب كأس الليمون المسكر و الذي تعبق منه رائحة القرنفل .

كان أبوك يصر أن نذهب لزيارة أمي مرة في الأسبوع ، كنا نجهز لهذه الزيارة ثلاثة أيام من قبل ، أبوك في حضرة أمي يبدو طفلا مدللا و أمي بكل هيجانها كانت تحضر له أكلته المفضلة : الدجاج المحشو بالرز المفلفل ، إلى جانبه صحن من الحليب الارائب ، و سلاطة الطماطم و البصل المرشوشة بالزيتون الأخضر و الأسود .

كان أبوك يأكل و أمي تحصي عدد اللقمات التي يوصلها إلى فمه ، كلما توقف ليشرب كأسا من الماء أو قازوزة سوداء - وكم كان يحبها - تهرع أمي لتقسم بأجدادها الشرفاء و باسم النبي و الصحابة المبجلين أن يواصل الأكل ، حين تنزل الظلمة من السماء كنت أشعر أن أمي كانت ، كلما زارها أبوك تحس بان الظلام لا يريد أن ينزل بسرعة .

و حين ينزل رغم تأخره كانت أمي تخرج الصينية بكؤوسها المغربية الملونة ، فتعبق رائحة النعناع ، تجلس أمي قباله أبيك ،

أشعر بأن وجودي في وضعية كهذه وجود بارد و لا معنى له ، فأسحب نفسي الى الغرفة التي يجلسان في واجهتها ، أفترش ما أصادفه في طريقي دون أن أكلف نفسي حتى أشعال المصباح .

كان أبوك يحكي لها مغامراته ، فهو قد زار الهند و السند .

و هو في ذلك يستعيد أمام أمي ما قرأه في رحلة إبن بطوطة ، و أمي أتصورها من تحت الشرشف الخفيف الذي يدرثني بعد أن أتجرد من كل ثيابي ، هي عادة تعلمتها منك فأنا لا أنام إلا عارية إلا منك فأنت غطائي و سمائي التي لا تزول و لو أنك سترحل الى العراق التي يقولون أنها بعيدة جدا جدا .

« أمي أتصورها » و هي تسمع حكايا أبيك متعجبة ، و كلما غرق أبوك في وهج الحكايات المتصاعدة من أدغال الهند و الأماكن التي لا مكان لها سوى في ذاكرة إبن بطوطة ، كانت أمي تنزع عنها ثيابها أبوك كالساحر يطلق حمائم الكلام ، يخرج من الكلمات الإدهاش و الدهشة ، أمي بزوق و يختلق و أم حليمة تكشف جسدها ، و حليمة كالقتلة مع الحكايا و تنسى أن زوجها يرتكب الظلام ، كانت تعرف أن أمها مع ثيابها لم تكن حزينة لذلك بقدر ما كانت تتمنى أن تتأخر الفترة أطول كي يسبح كلام الأب فيفيض كالطوفان على الأشياء و المخلوقات الغريبة التي يطلقها من فمه .

كنت يا ما حظني مأخوذة بهذه الحكايا أدفع أباك الى أن نبقى ربما ليلة أخرى ، أمي كانت تتربص به حين ينعرص في الحكاية كي تدخله بين نخذيها ، أما أنا فكنت أجد المتعة في لسانه الذي يسيل لذة أخرى لا توجد في الرجال الآخرين .

مرات أرغب في ان اثيره ، في بيتنا هذا ، كي يحكي لي قليلا عن أية بلاد ، لم يعرفها ، واصنع له مثل ما تصنع له أمي ، أرنبا محشوا بالرز أو دجاجة بلدية ، فكان يأكلها بنهم ثم يقوم ليتوضأ و يصلي صلاة العشاء و الوتر و الشفع ، ثم يتمدد و قبل أن التحق به يكون قد أعلن شخيره .

أمي لا أدري كيف تتصرف حتى تبقيه يقظا ، سألتها مرة فقالت لي تلك حكمتنا نحن ، سكت .

و أقسمت أن أغامر معك يامصطفى ، أنا لا أريد ان أذهب معك إلى العراق ، ولكني أريد أن أبقى هكذا في حجرك ، أحكي لي حكاية أو أصمت و أتركني أحدق في عينيك فهما أغرب حكاية .

أتعلم يامصطفى أنني خفت منك تلك الليلة حينما رأيتك لأول مرة سكرانا ، كان كلامك ثقيلا ، و كنت كالطفل في بكائك ، كنت تتمنى ألا تذهب إلى العراق أن تبقى هنا في هذا المكان ، هنا في حجري ، شجعتك قائلة :

-مستقبلك يامصطفى ، ستعود بعد سنوات قليلة دكتورا ، ستنساني و ربما ستحضر معك إمرأة عراقية ، أنا لا أعرف جما العراقيات و لكنه لا يبدو مثيرا و أني أعرف أنك صياد ماهر وانك ستختار أجملهن ، ستنساني يامصطفى و ستقول لي حينما اريد أن أخلو بك :

حليمة لقد إنتهى لعب الأطفال الذي بيننا ، أنت مثل أمي .

أدرك جيدا أنك و أنت تقول ذلك تستعيد ليلة الضريح . لا تحاول إن تكذب علي فأنا أقرأ ما في قلبك ، حين أحاصرك بهذا الكلام تبكي و أبكي معك ، تخرج أمك من الغرفة التي في آخر الحوش .

تدخل المرحاض تسمع شرشرة بولها ، تسكت ، تعود الى غرفتها بعد أن تقوم بإشارة تبين لنا بأنها رأتنا و نحن هكذا ...

يكح أبوك فلا تخاف تقول لي المهم أن لا وجود لرائحة الخمر ، أبي الله يرحمه و يوسع عليه .. كان يؤكد لنا و يعيد هذا باستمرار ، أن أخبث الخبائث هي الخمر ..

كنت أكثر شجاعة معك ياحليمة حين شربت ، كان يمكنني لولا الخمرة التي أوصلتني إليك ، أن أكون داعية في حزب سياسي يجري وراء المناصب و كراسي البرلمان ، و ربما كنت شاعرا ... جميع الشعراء فيهم خلل .

أنت من لحم أبيك معرفتك بلذة الحكاية و فتنتها تؤكد من أنك من صلبه .

المرأة يا مصطفي تحب في الرجال الحكايات ، الكلام يسل من المرأة كل شيئ .

أتمني أن تكون الحياة حكاية تسمع ورأسي على فخذ رجل دافئ.

حينما أحكي أشعر بجسم حليمة ينبت الشوك .

كانت تندفع بعينيها في غموض يشبه تلك الحال التي تحصل مع الدراويش في « الحضرة ».

تذكرني حليمة و هي تسرّمع الي و أنا أحكي ، أكذب و أحرف ، أنسب ما فعله و قاله غيري لنفسي ، أعرف مرات أنها تعرف أنني أكذب و أنني أنتفخ كالديك الرومي كي أغرقها في صور عجيبة . و كانت و هي المدوية المذابة في الحكاية و تضاريسها ، تذكرني و أنا أتعلق بأشخاص غريبين و جميلين يعرضهم أمامي جدي كلما زرته ، يأخذني بالحكاية التي يقف أشخاصها ضد الموت و ضد الزمن و ضد منطق الحياة الخاطئ يأخذني الى الدهشة و منها الى النوم جدتي هي التي تتكفل بالمهمة كي يخلو لها الجو مع جدي ، ترمي بي في فراش يعد مسبقا في الغرفة المجاورة في الصباح ، أسأل جدتي عن وجودي في هذه الغرفة ، جدتي التي تكون منشغلة في إعداد خبز الفتير «1» لا تولي أي إهتمام لسؤالي ، يتكفل جدي بالجواب قائلا - الحكاية هي التي أخذتك الى الغرفة الأخرى .

أصدق لأن جدي لا يمكنه أن يكذب ، و شخوص الحكايا لا يمكنها أن تخلف وعدا في حضرة جدي .

هل رأيتم إمرأة تذوب في إدغال الحكاية ،إنها حليمة .

كلما أحكي لها تضع رأسها على ركبتي تطلق نظرها في المخلوقات التي أخلقها من الكذب الملون ، أنا أعرف أنها تعرف جيدا و جيدا

جدا إنني أكذب و لكنها تريد أن تقنعني بأنها تصدق ما أقول .
مرة سألتها ما يعجبك يا حليمة في هذا الذي أقول قالت لي :
تعجبني الحكاية ثم سكتت ، كنت أدرك جيدا أنها أكلت نصف الجواب ، الذي أفهمه أنا ، دون أن تتعب نفسها في قوله و هي بدورها تدرك أيضا أنني أعرف أنها تعرف أنني أعرف ما تحبه في حكاياتي ، أقول لكم بصراحة أنها كانت تحب طريقة حركة شفتي ، و كذا طريقة إبتلاع الريق ، كانت حليمة لا تنزل عينيها من شفتي حين أتحدث .
بالمناسبة أقسم لكم إن صوتي مزعج في الغناء ، إنني ما خلقت لذلك إن في تحريك الشفتين سرا .
حليمة وحدها تفقه الأمر جيدا .
صبت لي كأس شاي و هي تقول ، لا بأس، لا يقتل نشوه السكر لن أعطيك القهوة .
أعرف أن حليمة تحبني أكثر حين أكون في حالة سكر ، لا شيئ إلا لأني أكون رقيقا و حساسا ، الأمر الذي يسمح لها هي الأخرى كي تكون معي طفلة .
مرة دخلت عليها في حالة إنهيار ، كنت قد شربت كثيرا ، قالت لي بعد أن سحبتني إلى الغرفة و أقفلت علي الباب و إنسحبت :
- عليك أن تبقي هنا ، أفعل ما تريد داخل الغرفة .

منعت عني حتى الذهاب الى المرحاض ، لأنها أدركت أن ذلك يزعج أبي كثيرا ، تقيأت في الغرفة ، و لا أخفي عليكم أنني تبولت في طست أفرغته من الملح .

في الصباح حين ذهب أبي و دخلت علي قالت :

- كان علي أن أسجنك أيها الغبي .

سكت و لكني بدوري أقسمت لها أن أقوم بمسح أرضية الغرفة لوحدي ، حاولت أن تضحك من فكرتي و هي تسحب < الجفاف > و سطل الماء و < الفرنزيل > الى وسط الغرفة ، لكني أحمحت أن أغسل قيئي بيدي و بالفعل قمت بذلك و لكني أخفيت عنها قضية طست الملح الذي تبولت فيه .

حليمة عفريتة لا تفوتها فائتة ، كانت تنظر الي وأنا أمسح القيء ساخرة من طريقتي في تجفيف الأرض ، أنت لا تصلح سوى للإفساد ،

أنت طفل مخرب .

شممت رائحة القهوة على نار الغاز ، حليمة تحمص القهوة بيدها و تدقها و تطحنها بمطحنة < مولينكس > .

دون أن يرفع كسكيطته من علي وجهه .

وه زلاميت و بركاك من التهواز .... ذبحتم نعجة أم معزة .

سكت الغزواتي ، لم يكن ينتظر هذا التعليق .
إرتطام علبة الكبريت بصدر البربري أحدث صوتا .
دون أن يرفع كسكيطته من على وجهه قال البربري :
– طز .. أنا عيدت مع الكولونيل و الضباط الكبار ... أكلنا على مائدة واحدة .. مائدة طولها أربعة أمتار طولا و تسعين سنتمترا عرضا ..
لم ينس الكولونيل أن يقدم لنا تهاني العيد ، و أن يبتسم لنا أيضا .
كذب الذين قالوا أن له أسنانا من ذهب أصفر ، أسنانه بيضاء كالثلج .
هذا هو الشهر الثامن عشر الذي أقضيه في الثكنة هي المرة الأولى التي أشاهد فيها الكولونيل وجها لوجه .
كنت أعتقد أنه ليس هكذا .
لا يجب أن يكون الكولونيلات هكذا .
بهذا الشكل فهم لا يخيفون .
كنت أعتقد أنه أجمل و أطول و أكثر و سامة .
لأول مرة أعرف أن الكولونيل مقطوع الساق و أنه لا يستطيع أن يمد يده لذبح خروف ....
كان على الحكومة أو وزارة المجاهدين أن تشتري له قدما أدمية من بنك الأعضاء الجسمية التي حلل بيعها الأزهر الشريف .

برافوا عليك يا أزهر .

القدم المعدنية مزعجة و صوتها غير حضاري لا يليق بكولونيل .

الكولونيل رتبة مهمة إذا كنت لا تدري في بعض الدول يقود الكولونيلات حربا ضد السلطات المركزية .. يقودون إنقلابات ، إشتراكية أو إسلامية أو ليبرالية أو يقودون حربا ضد كرتيلات المخدرات ...

في بلاد كثر هذا النوع من البشر .

فقدوا [illegible] م .. و كثرت الصراصير في المدن ، أية علاقة بين الصراصير و الكولونيلات .

من فعل هذا .. يا هذا .

لماذا [illegible] صدقاء من المدنيين أكثر من العسكرين أحضرهم كي يحتفلوا .. بهذا العيد في هذه الشكنة ،معنا نحن الذين لم تمنح لنا عطلة .

وشوش ضابط إحتياط ، خريج معهد الحقوق ، صديقا يجالسه ، أدركت أن المقصود في حديثهما حضرة الكولونيل ، ليس غيره .

- منذ أن ذبح أباه ، و شاهد الدم يسيل بعنف من حنجرته ، لم يعد بإمكانه قبول رؤية الدم و لا حتى اللون الأحمر .

كره اللون الأحمر ليس موفقا إيديولوجيا ، فعلى العكس من ذلك فالكولونيل صديق للشيوعيين ، لأنه يعتقد أن الشيوعيين ، لموقف ضعف أو موقف مبدئي هم وحدهم دعاة السلم و السلام .

هو لا ينكر أنه حاربهم أيام ثورة التحرير ، و أنه أشرف على تدريب الطلبة الذين أدخلوا الخدمة الوطنية غصبا عنهم في بداية السبعينات بعد أن حلت منظمتهم الطلابية الماركسية .

- دربتهم و تعلمت منهم الكثير .

حضرة الكولونيل يأكل اللحم المشوي - لحم أضحية العيد ، بطريقة غير عسكرية .

كان الكولونيل يضع « سربيتة » على صدره ، و يقطع اللحم المشوي بسكين ، بدا لي شاذ المنظر .

الكولونيل من هواة مشاهدة أفلام عقداء الطيران و البحرية الأمريكية .

بقايا بشور الجدري على وجهه و كذا فلطحة أنفه تؤكد ريفية أصوله .

قال البربري :

- لم أعد أتتبع حركات يده ، و هي تعالج قطعة اللحم بالسكين ، و لا طريقة المضغ و لا حتى حركات الضباط الذين أقل رتبة منه ، و الذين في حضرته ضاعت منهم الثقة بالنفس و بالجسد الذي يخفونه تحت اللباس الكاكي ، أمام جنود كتائب الخدمة الوطنية .

هذا الموقف سمح لي بالأكل بكل إطمئنان .
لم يطل جلوس الكولونيل إلى الطاولة .
قام فقام الجميع .
هدأت الأفكاك عن طحن الأكل .
أدينا له التحية رافقه البعض من المدنيين و العسكريين .
حين تطلعت في مشيته كشفت جيدا العوج الذي بقدمه اليسرى .
حين بلعته سيارة 505 السمائية اللون ، عاد الضباط الذين ظلوا الى الطاولة لممارسة الإرهاب ضدنا ، بعد أن كانوا في حضرته أرانب .
أمرنا أحدهم أن نخلي الطاولة .. لم يكن أمامي سوى أن أهجم على فخذ الخروف المشوي لأسحب منه قطعة كبيرة ، و أنصرف .
المهم أننا عيدنا مع الكولونيل ، لم تؤثر في تصرفات هؤلاء الضباط الصغار .
حين كتبت لأمي رسالة أخبرها ، أنني بخير وأن رمضان الكريم ، شهر التوبة و الغفران ، قد مضى على الرغم من كل مآسية ، فرمضان في الثكنة رمضانان ،و أنني عيدت مع الكولونيل وأننا أكلنا من طاولة واحدة .
فرحت أمي حد الخوف .

كتبت لي أمي رسالة بخط أختي التي أخرجوها من المدرسة و في حلقها حلم أن تكون معلمة أو طبيبة .
معلمة الرياضة هي السبب في ذلك ، قالت لأختي تستطيعين أن تكوني راقصة باليه ناجحة ، جسدك مصنوع لذلك .
نقلت أختي هذا الكلام لأمي التي بدورها نقلته لأبي الذي بدوره نقله لأعمامي ، الذين بدورهم نقلوه لزوجاتهم ، اللواتي بدورهن نقلنه لجارتهن اللواتي نقلنه لأزواجهن .
و قال الجميع : إن أختي ستكون راقصة .
البعض منهم قال إنه شاهدها ترقص في حفل بوهران ، راقصة إيقاع الراي ، و البعض الآخر قال أنه شاهدها في التلفزة الإسبانية TVE ترقص شبه عارية .
من يومها أغلقوا عليها الباب ، لكن أخبار رقصها ظلت تكبر و تكبر فهي تقيم حفلات و إنها إشترت لأبي فيلا على شاطئ البحر الأندلس .

أغلقوا عليها الباب ذات عودتها .
الجميع ينتظر أن يكبر نهداها .
و أن يسيل الدم من جسدها ...
كأنما في بلادي جبلوا على حب الدم .
رضخت أختي للجميع ، كان عليها أن ترضخ سال الدم .....

ففرحت أمي و فرح إخوتي و خاف أبي و تعلقت بها نظرات أبناء العمومة .

ظلت أختي مشغولة بحلمها ، أن تكون راقصة باليه .

في غفلة من أنظار الجميع ، كانت ترقص تسند شقفة مرآة كبيرة على حائط الغرفة التي تتقاسمها مع جدتي التي فقدت نظرها منذ أربعة شتاءات ، و مع عمتي المطلقة التي تعشق أخي الأكبر عشقا لا تخفيه على أحد .

حتى أنها لا تترك الفرصة تفوتها كي تقبله في خلو الغرفة من أختي، و تلمه بين فخذيها و تداعب أشياءه .

عمتي إمرأة من نار ، لم تختلف مع زوجها على مال أو خلافات أسرية أو ما شابه ذلك ، خلافها معه أساسه السرير ، كان زوجها باردا ، كانت عمتي فائضة دائما بركانية ، لم ترد خيانته لأنها كانت تحترمه و تقدرفيه حبه لها و حبه للأطفال و حبه أيضا لمهنته و لحزبه الشيوعي الذي يدافع عنه دون هوادة داخل المساجد حتى أنه فطن إلى الطريقة للتأثير على الناس من المصلين إذا إرتبط بصداقة مع إمام المسجد ، فكان يكتب له خطب الجمعة يضمنها أفكار الحزب و إيديولوجيته، هو لم يكن يشرب خمرا و لم يكن يكذب ، بعض رفاقه كانوا يشربون ، مرة دخل عليه الإمام فوجدهم عنده ،[٨٨] و لكنه كان يحبهم حبا كبيرا ، جاء ليأخذ منه الخطبة كي يتمرن عليها ، كان عليه أن يجمع الأصدقاء و الإمام في بيت واحد ...

إستطاع أن يقنع الإمام أن يجالس الرفاق و يتناقش معهم .
زوج عمتي رجل نادر ، نقطة ضعفه جسده عمتي تقول لا يبدل ذالك الرجل بمقداره ذهبا ... لكن ...
كلما رقصت أختي أمام شقفة المرآة تذكرت أمي و كلما تلوى جسدها اللهوب كجسد عمتي ، إزداد كرهها لأمي و إزداد حبها لعمتي التي كانت تقول لها :
- أفرغي جنونك في الرقص تسمى رغبة الجسد رغبتين رغبة الرقص و رغبة الرجل ... و أضيفي لها رغبة الغطس في حوض الماء إنها رغبة عظيمة .
لم تتزوج أختي حتى الساعة ، هي تعرف علاقة أخي بعمتي ، و هي تتمنى لو أنها فقدت عينيها كما هي حال جدتي ، كي تترك لعمتي حرية التصرف مع أخي .
أختي لم تكن لها جرأة القيام بما تقوم به عمتي .
أمي التي تتفت ريش أختي ، و تركتها دون طيران تعرف أن جارنا الذي يؤدي هوالاخر الخدمة الوطنية في أقصى الجنوب .
و الذي قال عنه جارنا ، أنه على علاقة مبهمة مع ضابط سام .
أمي تنتظر خروج هذا الشاب من الخدمة الوطنية نهاية هذا الصيف ، و أنه سيجئ ليطلب يد أختي ، ربما لن أحضر أنا حفل زفافها .

أووف ليس مهما حضور زواج أختي الأفضل أن لا تحضره أصلا .
منظر الناس جميعا و هم ينتظرون نهاية معركة الدخلة تزعجك ...
تجعل رجليك ترتجفان تفقدان توازنهما في إيقاع العلاوي ،
بجتاحك إحساس غريب تفقد فيه رجولتك .
يجب أن لا تخرج الأخت من بيت أبيها ، عليها أن تكون
زوجة لأخيها ، ذلك يجعل وجوهنا حمراء كل أصبع يدخل خاتمه .
كان الغزواتي يعالج « فكرون » الحقيبة البحرية أخرج منها لوازم
الحلاقة ، وضع المعجون على وجهه ، و علق :
- شفرات الحلاقة مفقودة و أسعارها تكوي ، شغل جهاز الراديو .
- بالنسبة إلى العيد مع الوالدة يساوي الدنيا و ما فيها ، ليذهب
كولونيك الى الجحيم .
البهري الذي يحرس المهجع أجاب :
- اللي جاء الدنقود عالي يقول .. عليه حامض .
توقف الغزواتي عن حلاقة وجهه ، بعد أن كان قد حصد
نصف رغوة صابون الحنك الأيسر الذي سال منه بعض الدم من جراء
حلق الشوارب و حب الشباب .
قال و هو يسحب شيئا من الحقيبة بعد أن ترك أمور الحلاقة .

- هاك ذوق لحم أضحية العيد الحلال ، عيد الشكنات حرام لي حرام .
تناول منه البربري القطعة دون أن يتكلم لحظتها بدا وجهه ملوحا بالشمس بشكل واضح .
كنت أتتبع هذا الحوار ، و كان يتابعان ، حركاتي بكل دقة ، دون أن يشعراني بذلك .
قال لي السرجان الذي رافقني :
هذا هو مهجع الدفعة الخاصة ، أختر لك سريرا ، أزيد من نصف عدد أسرة المهجع فارغة .
هذان الجنديان لن يبقيا هنا ، الأول الذي عيد في الثكنة سيأخذ عطلة تسعة أيام ، اليوم أو غدا .
أما الثاني فهو عائد من عطلة العيد و سيلتحق بكتيبته
لم أعر كلامه كبير إهتمام شعرت أنه يريد أن يشعرني بأنه عسكري مهم إنه السرجان الذي يشرف على تدريب كتيبتنا .
لحيتي لا تزال بشعرها في وجهي .. مما أثار أنظار كل الجنود و الضباط الذين مررت أمامهم ، الذي رافقني معرب .
فهمت ذلك من الحديث الذي بينه و بين الذي أمره أن يوصلني الى الشالية و الذي يحمل على كتفه اليمنى لجمة و على يساره مثلها .

بدأت أبحث عن سرير يتوفر على قليل من النظافة ،قميصي الأبيض المكوي بدا شاذا في هذا المهجع حيث الأغطية « و الكوفيرتات » الخضراء العسكرية برائحتها و أوساخها المقرفة.

أخترت سريرا ، و ضعت جانبا حقيبتي المدنية التي عليها علامة « لاكوست » قرش فاتح فاه يريد أن يبتلع ...

سحبت حذائي من قدمي بطريقة كسولة .

رتبت الفراش قليلا فكرت في الصديق الذي رماني بالسيارة عند عتبة الثكنة و مضى يغازل النساء ، و يهتف « لإليزبات » كعادته كل سبت بعد العاشرة ليلا .

صديقي هذا قبل أن يتلفن لإليزبات .. يجهز طاولة عليها صحن « سلاطة » و شريحتان من لحم الحصان ،تفاحتان و بيضتان و كأسان و قنينة نبيذ « Mouflon D'or »

«الأروبة الذهبية» « أ » و مثله « إليزبات » تهيئ طاولتها على طريقتها الخاصة و هي في نهاية الخط خلف البحر .

يملأ صديقي الكأسين .

كأس له و كأس لإليزبات ، و مثله تملأ كأسين واحد لها وواحد له ،

يركب رقم تلفونها تكون هي تحتضن جهاز التلفون بين فخذيها يسبها بالخير .

يسألها عن لباسها ، مثله تسأله يجيبها

إني بعبائتي التي تحبينها .. بيضاء مغربية الصنع ، يابانية الخيط

- كيف هي إفريقيا .

يضحك صديقي ، و يجيب .

- خالية لأنك لست فيها .. لا شيئ عواء الذئاب و عواء إبن آوى وزئير الأسود و تدافع الدببة صورات .

تضحك هي الأخرى ، و تقول :

- باريس موحشة باردة دونك .

- يبدأ صديقي طقوسه ، يأمرها أن تنزع شبشبها تضحك إليزابيت - كأسك يا إليزابيت .

- كأسك ياأبدو .

يشرب كأسها ثم كأسه ، ومثله تسرب كأسه ثم كأسها .

يحكي لها عبدو عن بحثة الجامعي الذي يقوم على علاقة الفن التشكيلي المغاربي بالمدارس الفنية في الغرب و خاصة فرنسا .

تحب إليزابيت حديثه عن أسطورة الألوان ، حين كانت الألوان آلهة يطول الحديث .

تشرب الكؤوس في نهاية الخط .

يقرأ لها بعض القصائد التي يكتبها أصلا بالعربية و يترجمها لها إلى الفرنسية .

يقول لها : إن إمرء القيس هو جده الأول ، إنه يملك و ثيقة شجرة العائلة تصعد حتى هذا الشاعر الكبير الذي لا يقل أهمية عن هو ميروس و شكسبير و بودلير .

- ينزع عنه قشابيته

- تنزع عنها << لاروب دو شامبر >>

- عاري أنا ياإليزابيت

- نعم يا أبدو .

يسحب عبدو جسده يتعب إلى السرير ، ومثله تجر جسدها المرمري إلى السرير .. تقرفص مثل القطة رأسها إلى الأمام فتنهار على السرير ، الرأس محل القدمين و القمين على المخدة و حده التليفون لا يفارق أذنها يحمل عبدو كأسه إلى السرير .

يلتهم جسد إليزابيت من خلال الخط و تلتهمه هي الأخرى .

يغلق الخط...

قائلا إلى السبت القادم .

- إلى السبت يا شاعري ..

تنتهي المكالمة .. يتقيأ عبدو ما في جوفه يستسلم لنوم شعري كالأطفال .
قال البربري وهو ينزل « الجريكانة » الملفة بقطعة ثوب « أتياس الشر
- هل تشرب ..
الواقع أنني لم أكن راغبا في الشرب ، ولكن الصمت الذي ران على المهجع بعد خروج الغزواتي جعلني أقول له :
- نعم ...
أعطاني « الجريكانة » حاول أن يفك الصمت ، الذي لم تستطيع لا الاغنية البربرية التي كان يرددها ، و لا أخبار موجز منتصف النهار عن تحطيم الطائرات و تقاتل اللبنانيين ، و انقلاب السودان ، من تحطيم رصاص الصمت .
جرعت من الجريكانة .
عدت إلى التمدد على السرير كان البق أسرابا يهاجمني .
المنظر مقزز .. مخيف .. نفضت « السربيتة »، من البق الزاحف كالدبابات .. أسرعت إلى الخارج تقيأت .
ضحك البربري . قال بعد أن أدرك أنني أريد أن أخفي الأمر عنه :
- متعب هذا البق ، المهاجع كلها مليئة ، هذا المهجع أنظفها .

لم أرد .في اليوم التالي قال لنا القبطان المسؤول عن الدفعة الخاصة بعد أن حدثنا في كل شيئ ، من أنواع « الكاطو » إلى « التليباتي»

- البق « قالها بالفرنسية » ينجذب أكثر الى الدم من زمرة « +O » إيجابي هذا ما أوضحته تحاليل مخبرية .

و أنا +O تجمهر الجنود .

في لباسي الكاكي كنت منزعجا ساحة العلم بذبابها واسفلتها الساخن تثير في إحساسا غريبا .

الكتائب تصطف أو تأتي لتأخذ مكانها في الساحة المستطيلة الشكل. كنت أشعر أن أنظار الجميع موجهة الي ، توسط الساحة القبطان المبتهج بطوله و تجرمه ،كان لباسه غير منضبط ، و لحيته غير محلوقة بشكل جيد .

الإحساس الذي إنتابني أول مرة و أنا أسمع و أشهد رفع العلم ، كان إحساسا ملينا بالرهبة ، كانت الموسيقى المندلعة من مكبر صوت المسجد الذي يستعمل للأذان و للغناء و للإعلانات و المناداة على الجنود و الضباط و ضباط الصف ، تثير في حنينا إلى شيئ ضيعته في طريق ما ، الذين من حولي لم يكن الأمر يهمهم ، الوقوف في ساحة العلم لا يعني لهم أكثر من أداء واجب يومي ثقيل ، ينتظرون إنتهاءه .

لكي يتراكضوا إلى النادي لخطف كازوزة أو كازوزتين ، من الصعب الحصول على كازوزة ، هي معركة يجب أن تخوضها كي تصل إلى البائع .

حين تعرفنا على الضابط المسؤول على النادي ، قال لنا ، بعد أن أصبح حصولنا على الكازوزة شيئا بسيطا .

إذ أنه كلف الجنود باحضارها حتى مهجهنا .

- تمول الشكنة بالكازوزة من مصنع يعود لواحد من الضباط الكبار في الشكنة ، أخوه هوالذي يقوم بذلك .

على كل حال إنه ليس ذلك القبطان ، لأن القبطان الطويل القد و الأسمر جدا يقال أنه يصرف أمواله كلها على النساء ، يملك شقتين في ضواحي وهران لهذا الغرض .

إنه قتل زوجته حين أدرك أنها تخونه مع بائع المواد الغذائية قتلها و هو يضحك ، ولم يستطع الطبيب أن يكتشف أثر ذلك على جسدها ، الطبيب هو الذي أملى عليه الفكرة .

الذين سكروا معه قالوا ،و الله أعلم ، أنه مع كل سكرة كان يعيد تمثيل عملية القتل بكل تفاصيلها ، ثم يصرخ بأعلى صوته مرددا إسم زوجته ،يشرب ما يلقاه أمامه و ينام .

مسكين هذا القبطان يمص شفتيه بطريقة مزعجة و مضحكة .

قال الجندي الذي يقف إلى يميني :

- هذا القبطان .....

ضحك أفراد الكتيبة دفعة واحدة ، مما جعل السرجان الذي يتولى أعطاء « الإيعاز » يشك في نفسه .

تتكون وجبة العشاء من كيس حليب يتقاسمه أربعة أو خمسة جنود ، و بيضتين مسلوقتين بعدها يتجمع الجنود في حلقات أمام المهاجع ، يبدأون ب الغناء و الرقص و التنكيت . كان الشريف أكثر أفراد الكتيبة مزاحة ، قال لنا حين يدخل الجندي الثكنة عليه أن يتعلم قاموس « الوقاحة » و أن يقف الكلام الجميل مع لباسه المدني ، في الثكنة عليه أن « ينظف » لسانه من كل كلام نظيف .

أ[illegible]ت رخيم ، دافئ ، بين يغني زوجته يبكي كالأطفال تحمر عيناه ، يدس رأسه بين ركبتيه يشهق حتى تطلع روحه ، يدخن بشراهة يصرخ بأعلى صوته كالمجنون .

- فاطي ... فاطي ...

ترتخي عضلاته ، كأنما يمارس طقوس اليوغا ، يسحبه « نصرو » إلى وسط الحلقة ، يتغير الإيقاع ، يرقصان ، يتدخل الآخرون ... يتحول المشهد من ميلود دراما فردية إلى رقصة هزلية جماعية . نصرو شكل آخر خفيف رائق ورائع ، رجل من صفاء و نكت ، يخرج قلبه بين يديه .

ويفتح أفراحه و أفراح الآخرين و يضحك له قدرة عالية على تقليد كل أساتذته . الآن فقط أكتشف لماذا تخصص هذا الشاب في المسرح ، إنه لم يخطئ ذاته .

يحزم نصرو قشابيته بطريقة الدراويش ، ثم يرقص حتى يصمت الجميع و يرقص .. يرقص حتى آخر الليل ، زكي هو الذي كان يرافق رقصاته بدق على « جريكانة » مثقوبة .. وزكي مسكون بالرقص و الغناء متفجر و عصبي و متهور ، بهرودة أعصاب يستعيد أمام الجميع أياما باريسية ، وكيف أنه استطاع ذات إحتفال برأس السنة أن يوقف الساهرين في وضعية « الظهر إلى الحائط » مدة ساعة و ربع الساعة لا لشيئ إلا لأن أحد الفرنسيين تطاول على إمرأة مغربية و غيرها و أضحك الحاضرين عليها .

كان رجلا وحيدا في رأس السنة تلك ، قالت له المغربية أمام الجميع أنت المسيح و لا مسيح سواك .

حين أطلق سراح رهائنه قبل ثلاث دقائق من الإعلان عن رأس السنة شربوا كأسه و اعترفوا بنصره .

قبلته المغربية كثيرا و نامت معه ، عاشت معه بعد تلك الحادثة ثلاثة عشر شهرا . كان لا يأكل من يدها سوى « الغريبة » المغربية و « الحريرة » المفلفلة و « البسطيلا» كان عظيما و يحب أن يأكل أكل العظماء .

زكي مثل تصور لا تقام الجلسة في غياب أحدهما ، مسكونان بالأغاني و رعشة الأكتاف .

موسطاش واحد آخر لا يمكنه أن يلم لسانه لينام قبل أن يغني أغنية « فاطنة » لا يشعر بالزهو إلا حين يرددها معه الجميع ...

لا يفترق المجتمعون إلا ليقفزوا واحدا أثر الأخر من على السور المحوط للثكنة في إتجاه القرية الصغيرة للعشاء .

الفريت و الأمليت و بعض شرائح الكبد المشوي .. إنها « بوسطن - سيتي » ... هكذا سماها الجنود .

الأخضر و حيد في الدنيا ، مقبل على الحياة بعنف ، ملك الجميع ، قلبه في يده ، منذ أن دخل الثكنة إختار سريرا في أقصى زاوية الركن الأيمن ، قال الأخضر بلهجته الندرومية .

أبناء المدينة الذين إجتازوا محنة الخدمة الوطنية قالوا لي ، نوصيك أن تختار السرير الأبعد عن الباب حتى تستفيد من الوقت الذي يقضيه السرجان في إنهاض الجنود ، من النوم فأنت آخر من يصله ركله

و شتمة و سبابة.

على عينيه نظارة سميكة الزجاج ، أكول ، و كسول يدخل القلب بسرعة يكسر كل الذي بينك و بينه في رمشة عين ، جاء الثكنة يحمل حكايته .

لا يتحرج من ذكر كل ما في بطنه .

تلك الليلة بعد أن تسلقنا سور الثكنة ، شربنا كثيرا ، كان علينا أن نشرب كثيرا ، كي ننسى كثيرا ، أو هكذا بدا لنا الأمر الأخضر يحب رائحة « الكمومبير » الكريهة ، يضع أنفه في الكاغط الذي يغلف الجبنة ، و يصرخ ...

- آه .....

قال أنه كان يفضل أن يلف الكمومبير في فردة جورب و سخة ليلة كاملة حتى يأكله مع النبيذ في اليوم التالي .

تلك الليلة شرب الأخضر بشراهة .. حتى تقيأ أمعاءه و تقيأ حكايته :

يوم لا كغيره من الأيام شتاء ثلجي ، و سماء فقدناها في الغيوم ، توضأت الحاجة بماء دافئ كان عليها أن تقتصد قليلا من الماء المغلي لقهوة العصر لتضيف إليه ماءا باردا .....

كان على أختي التي تزوجت الآن بمدبر مصلحة في شركة بيع قطع الغيار للسيارات ، أن تخلي لأمي المرحاض كي تتوضأ لم تتأخر أمي في المرحاض ، فقد كنا ننتظرها كي نشرب قهوة الإفطار المزوجة بالفلفل الأسود .

بسطت كعادتها بساطها الدومي و ركعت ركعات المغرب ،

ثم إلتحقت بالمائدة الدائرية ، بينما كنا نحن جالسين على السداري، تربعت هي على « الهيدورة » في الأرض .

صمت أمي الحاجة .. هي لم تحج ، مع ذلك كل الجيران و غير الجيران يطلقون عليها هذا اللقب .

- كان رمادي اللون ، صمت من رصاص .

الواقع أن أمي لم تكن تصلي إلا أيام شهر رمضان ، تبدأ صلاتها ليلة الشك ، تصلي العشاء و الوتر و الشفع ، هي فخورة بعادتها هذه و تعتبر أن لا صلاة سوى صلاة رمضان ، أما ما سواها فهي نفاق في نفاق .

يوم لا كغيره من الأيام .. أكلت حبة تمر واحدة فرقت بها صيامها ..ثم ماتت .

بتلك البساطة ماتت تمددت ، جمعتنا حولها ، ثم قالت لنا بعد أن حاولت أن تبصق علفة « نواة » التمرة فلم تستطع .

- أنا ذاهبة ، العاشق الكبير يناديني ... أعينوا بعضكم بعضا .

بكينا .. قرقرت القهوة السوداء في بطني .. حين مررت عمتي يدها على عيني أمي - وسحبت فوقها الإزار الأبيض .

شعرت بإنتفاخ في طبلتي أذني ، صرخت بأعلى صوتي ..لم تتحرك أمي و هي التي كانت تعرف صوتي و تميزه منذ كنت صغيرا ألعب في الباحة مع أبناء الجيران ..

كانت كلما صرخت ظالما كنت أو مظلوما إلا و تلم النساء تسب أم الذي تسبب في إزعاجي .

حتى لقبوني بإبن أمه إذ كان الجميع يناديني < ولد رابحة >.

الآن أغمضت أمي عينيها ، فسبحان العينين المغمضتين ، يا الله كم هو عميق سكوت الإنسان ، خاصة حين يكون الساكت أما .

كانت أمي تقرفص على< الهيدورة > تضعني قبالتها كالتلميذ المغفل .

تطلب مني أن أفتح أذني جيدا ، كنت أقول لها :

أستطيع أن أفتح عيني جيدا لكني لا أستطيع ذلك مع أذني ، لا تعير كلامي أي إنتباه .

كانت تنظر في قدمي جيدا .. تحدق ما بين الأصابع كي تتحقق جيدا من نظافتهما .

تفرح أمي حين تكون رجلاي نظيفتين كنت أخاف أن أذهب معها إلى الحمام .

كانت تمسكني بين فخذيها ، تخرج من كيس البلاستيك < حجرا أحرشا >ثم تبدأ في حك ظهري ، أصرخ حتى يزرق وجهي و لكنها لا تبالي لصراخي ، ترش جسدي بالماء ثم تفركني ثانية

أحاول أن أهرب .. تصوبنني و يمتلئ جسدي رغوة ، شعري يكون لحظتها ينقع في الغاسول البلدي (تشلله) بماء قوي .. أشعر براحة آنذلك يعجبني التفرج على منظر النساء العاريات ، لا شيئ سوى الأفخاذ ، و الأجزاء المشعرة ، و النهود و الأثداء المشدودة و المرتخية ، منظر قبيح لكنه مسل .. حين أدركت أمي أن عيني تزوغ جهة أجساد النساء لم تعد تصحبني إلى الحمام معها .

حين جمعت أدباش الحمام قلت لها أين أغراضي أنا قالت لي ستذهب إبتداءا من مساء هذا اليوم مع جارنا و أبنائه ، إذن لقد تغير كل شيئ .في حمام الرجال عالم آخر ، على الرغم من أنه الحمام نفسه الذي كنت أصحب أمي إليه ، الرجال مستورون ، و الكلام قليل ، لا عراك و لا صراخ ، الأطفال قليلون .

حتى رائحة البول قليلة ،و الكلام الوقح قليل أيضا .

سبحان الله لأول مرة أدرك أن النساء هن الوقحات ، أما الرجال فألسنتهم نظيفة .

لا يتجرأ أحدهم أن يخلع سترته من على جسده ، حتى جارنا حين أراد أن يغسل بعض أطرافه قال لي أنظر هناك ...

كان يحك بعض مناطق جسده من تحت السترة .

كنت أقابل أمي ... وهي تهذي .. لقد ذهب جزء من عقلها ، كنا نخفي هذا عن الجيران ، كانت أختي الكبرى تتحرج من كلام أمي غير الموزون أمام الزوار خاصة مايمس الحياء .

أمي تقابلني تبكي و تقول :

-أتعبتني هذه المدينة التي تحاصر نفسها بدمها الحامل كل أمراض العيون و الصدر و الجنون وعاهات أخرى .

الرجال لا يتخلفون عن ركعة واحدة ، جميعهم يريدون أداء الصلاة خلف الإمام مباشرة ... فتلك أماكن صلاة الوجهاء و الوجاهة .

يجلس الرجال عند عتبة المسجد يدخنون الحشيش ، يغازلون النساء ، الجزارون و الخضارون و الدرازون و بائعو الخيوط النسيجية و خياطو الجلاليب المغربية و بائعو قطع الأثواب جميعهم يجلسون ساعة العصر إلى عتبات دكاكينهم ينشون الذباب بمروحات مصنوعة من الدوم أو الحلفاء ، يحدقون في سيقان النساء .

التجار كذابون يابني .. لا أعتقد أن النبي كان تاجرا ، الأنبياء لا يكونون تجارا ... الأنبياء شعراء أو مجانين .

يقسمون بالقبض على شباك النبي و يقسمون ظهر الزبون .

بعد أن دفنا أباك الذي جامت عليه « الشينة » مع أربعين نفس من الحي طلب أحدهم مني الزواج ، قالها لي دون حياء ، لم يكن قد مضى على دفن أبيك أزيد من ثلاثة أسابيع .

-نتزوج و نتعاون على هم الدنيا ....
نشتغل في تهريب الحشيش و خبوط القيتارة و العود من المغرب و الشام و تركيا و إسبانيا .
كاد الشيطان ذا القرنين الله يلعنه أن يلعب بعقلي .
الفيلات التي تحاصر المدينة في الشمال و الغرب تثير في حس الإختناق كلما كبرت الفيلات و علت تقزمت دارنا و إختفت ، و إختفينا و تقزمنا بداخلها و بدت وسط مهرجان الأقواس و الألوان و الأضواء و الرخام و الزليج و الحجر المقصوص المستجلب من إيطاليا و إسبانيا ، لطخة مقيحة .
الذين أقاموا الفيلات لم يكونوا قادة أيام فرنسا ، ولم يكونوا قادة سنوات الثورة التحريرية التي حرروها حريرة ، جميعهم هربوا إلى وجدة و تونس .
لم يستطيعوا الإستقرار في هذه المدينة فهي مدينة بلا هوية ، مدينة المعابرو عبور أنواع التهريب المختلفة .
كانت وجدة بفوضاها تدفعهم إلى الداخل إلى فاس أو الدار البيضاء أو منها إلى إسطمبول و تونس ، قاموا في هذه المدن تجاراتهم ، لاحقت الثورة بعضهم ، لكن حرارة الثورة و فيضانها لم يترك الوقت الكافي للمحاسبة و المتابعة ، الذين أقاموا هذه البناءات ،

تعلموا الموسيقى الأندلسية ورثوها عن أجدادهم ذوي الدم المختلط الإسباني اليهودي التركي و العربي و البربري ، حين هاجروا إلى المغرب و تركيا لم يستطيعوا الإستقرار بتونس لشيئ غامض ، نقلوا أموالهم و ذهبهم و آلاتهم الموسيقية و بناتهم ،تعرفوا على يهود المغرب فتعلموا منهم فن التجارة ، و فن التكتل و فن خفة اللسان و قوة الغرز ، كان اليهود يقولون :

هؤلاء هم أبناء عمو متنا . دخلوا حرفة النسيج فنافسوهم ، و خاضوا سوق الصياغة فأبدعوا، حتى أن اليهود ، في مدن كثيرة ، بدأوا يشكون مزاحمة هؤلاء القادمين من ندرومة .

حين شب الصراع بينهم و بين اليهود ، بعثوا أكبر عبقري في الموسيقى إلى « الحاخام » اليهودي ، تشاور معهم ليلتين بنهاريهما وزاد نصف نهار ، بعد ذلك تم الإتفاق سريا على توزيع خارطة تجارة ، الذهب و النسيج في فاس و تلمسان و ندرومة و قسنطينة و بليدة و تيمبمون، بعد هذه الحادثة بسنة إحترم فيها الطرفان حرمة التجارة و الموسيقى و الشعر .

فقد نبغ من الطرفان شعراء و فلاسفة و حكماء سمح هذا الفضاء الثقافي بالتزاوج فيما بينهم ، و قد أحيوا أول زواج مختلط ، حفلات دامت شهر الحرام الإسلامي ، و مثله في التقويم اليهودي ، كانت العروسة مبتهجة فقد خرقت تاريخا من الخوف بين أبناء العمومة .

تلك الليلة جيء بالموسيقى الكبير ليعزف سبعة أيام في بيت العريس و مثلها في بيت العروس ، و قد وجد ميتا بعد إنتهاء مهمته حزن عليه الجميع فكان أول عبد مشترك للحزن .

كان الموسيقي فخورا بموته هذا .

بنوا له نصبا تذكاريا عند سوق الصباغة من الرصاص الخالص ووضعوا عينيه من ذهب عيار 21 قيراط ، و كتبوا أبياتا شعرية عند قدميه بماء الذهب .

مرت الليالي .. قطار الليالي لا يتوقف .. نسي الناس أصلهم ، و دفاعهم عن أصلهم .

إقترب الدم الذي إفترق ، تبادل الجميع ذات الألقاب و حمل البعض لقب الآخر و حملت الزوجة لقب زوجها . و حمل الزوج لقب زوجته ، و توسعت تجارة الحرير و النسيج و الذهب و خيوط أوثار الأعواد و القيثارات ، و أضيفت إليها تجارة « البلغة الفاسية » التي وصلت تلمسان و بليدة ، و قسنطينة ، و تونس و بلاد الشام ... إزدهرت أيضا حرفة الخياطة خياطة « الجلابة » « المجبود » «و نصف المجبود» بالله ماكنا نعتقد ذلك ، نسي الناس و لي الله الصالح الذي يعمر رحم العاقر و يعمر جيب الفقير و يفرح قلب الحزين و يعيد الرجال إلى ديارهم ليسكنوا بين أفخاذ نسائهم شتاءا و صيفا ...

سبحان الله تسى الناس الولي الصالح و عادوا لا يجلسون إلا عند أقدام تمثال المغني الذي ردم بروحه الواد السحيق ما بين اليهود و المسلمين .

كتبت عنه الأشعار ، ضربت حول ضريحه قبة مرمر و رخام بهاب نحاسية صفراء منقوش عليها أيات قرآنية و أحاديث و أبيات من شعر الخمريات .

و جد الناس مدينتهم هكذا مليئة بالذهب و التجارة و مزارع النحل و العسل الأصلي و روائح البخور و « مثارد » الكسكي المصنوعة يوم الجمعة و قدور « الدفين » من الخميس يوم السبت . رائحة البهارات و الشعائر ..

الأخضر النحيل ساهيا سارحا يتتبع بنوع من الكآبة عزف « السطايفي كان ضروريا أن يمسح نظارته .. لم يكن يبكي لكنه شعر أنه يجب أن يبكي .

أبعد صوره أمه المرحومة من ذاكرته قليلا ، عبثا أن تبعد صورة الأم من الذاكرة .

جاء اليهود .. و لليهود صمت .. صمت الأنهار التي تريد أن تفيض صيفا .. ملأوا الدنيا تجارة ...

تعلم أبناء المدينة الحساب .. فمنعوا تدريس المواد الأخرى فأصروا أن يعملوا أبناءهم الحساب و سورة الفاتحة و أركان الإسلام الخمسة و بعض أشعار أبي نواس و إبن سهيل و الموشحات ، برع الناس في الحساب و تشكلت جمعيات لعلوم الحساب و كانت أعظمها جمعية « جابر بن حيان » و جمعية « موسى بن ميمون » .

و قبل أن تتحول هاتان الجمعيتان إلى حزبين سياسيين يهدد وحدة الدم و المصير ، إجتمع أعيان المدينة و كفروا « جابر بن حيان » و مثله « موسى بن ميمون » وحلوا الجمعيتين و رقص الناس في تلك الليلة مثلما رقصوا يوم أول عرس مشترك ، و نصبوا في الشوارع الخيام و قدموا المأكولات و أقاموا أعراسا مشتركة ..

يقال إن المدينة إحتفلت ليلتها بأزيد من ثمانية و تسعين عرسا و أن الموسيقار شوهد ينهض من تمثاله النحاسي البراق بعزف مقطوعة هي أصل كل موسيقى « ندرومة » من هذه المقطوعة خرجت الموسيقى .

قالت الأم ، قال لنا أبوك يابني :

- تعلمنا منهم الفلسفة و تعلموا منا الشعر .

حين إمتزج دمنا ، قال الطبيب الذي منهم .. حين لم يكن لنا طبيب ... قال :

- هذا التزاوج و إختلاط الدم يمكنه أن يقضي على عاهات العيون و العقول ....

الواقع أن المدينة كثر فيها المجانين ، من كل ثلاثة أسر توجد واحدة فيها مجنون .

هم مجانين و لكنهم يعشقون الموسيقى و بعضهم يتقن « الدرازة » و خياطة الجلابة .

تعلموا منا أشياء و تعلمنا منهم أشياء ، النساء تذهبن لحمام واحد و الرجال كذلك ،لكن الدم ظل يدور في مكانه حتى عاد لينتج عاهات .

ربما آنذاك قصد البعض الشام و فلسطين و أثيوبيا عن طريق باريس ، كانوا يتجمعون بالثورة الجزائرية ، سافروا إلى باريس و منها إلى فلسطين ، متأكد أنهم سيعودون إلى حوانتهم و حارتهم .... فالسماء التي فوق المدينة تنتظرهم .

رغم أن صوت « السطايفي » كان لا يزال يحتن الموقف الغرامي ، و بين الحين و الآخر يجرع قهوته من كأس البلاستيك ،إلا أن الأخضر يحتفل بأمه أكثر هذه التي تحاصره الآن ، يقول الأخضر .

- لم أتذكر أمي مثلما أتذكرها الآن .. لقد مضى على موتها أكثر من تسع سنوات .

كان الأخضر يتلذذ بحك أماكن قرص البق و يعيد بطريقة لا شعورية موضعة النظارة على أرنبة أنفه المائل إلى الطول قليلا و غير المتجانس مع عينيه الضيقتين المطموستين خلف زجاج سميك .

شهيرة صيف ليست كأية ظهيرة ، عاد اليهود إلى حيهم ، داروا المدينة ، في البداية خاف الأهالي من الحكومة ، و لم يتجرأوا على التحدث إليهم ، الكبار كان بهم شوق كبير إلى معانقتهم ...

كانوا يرغبون في أن يفتحوا لبعضهم البعض القلوب و يستعيدوا أيام الصياغة و خياطة الجلابة و الدراز و البلغة الصفراء الفاسية .

كان الكبار من اليهود بهم حريق إلى الأسوار و الأرصفة و تراب الطرقات و الغبار العالق بين مفاصل الأبواب العتيقة .

و الكبار منا أيضا كان بهم شيء كثير .

قال جار لجاره :

- لقد كبر موسى .... نقص طوله ...

البعض منا .. أو لئك الذين يمارسون السمسرة بدل التجارة في حي اليهود أغلقوا الأبواب هذا المساء قالوا سيدخل اليهود إلى محلاتهم و يطردونا منها ، معهم أوراق تثبت ملكية هذه المحلات ، يبكون بحرقة .

يسترجعون العمر الذي مضى و الأجداد الذين رددوا الحكايات و قرأوا الأشعار على هذه العتبات .

لا فندق في المدينة .. و حين سقط الليل من السماء ، إحتارت السلطات المحلية كيف و أين سيقضي هؤلاء اليهود ليلتهم في مدينتهم .

قال اليهود :

- دعونا نقضي هذه الليلة هنا في هذا الشارع ، نستعيد صيفا من أصيافنا .. لكن حين سقط الليل تقدم الكبار إلى الكبار .. كبارنا من كبارهم ..إستعادوا عبق البخور البخور و الفلسفة و الأشعار و الموسيقى .. إستضافوهم ..سمعت الموسيقى تصعد من الأحواش ..و فاحت في شوارع المدينة رائحة أكلة « الدفينة ». الصغار الذين تربوا على رضاعة الجمل السياسية الفارغة ، و الذين حرروا فلسطين لا ناقصة و لا منقوصة و الذين عاشروا الفلسطنين في الأحياء الجامعية ، شربوا معهم الويسكي و دخنوا من علبهم سجائر المارلبورو ، و ركبوا معهم سيارات « الفورد » و « الشوفرولي » ... و حملوا معهم طالبات اللغات و الأدب العربي . الصغارهؤلاء إحتجوا ... و شكلوا حزبا دينيا ماركسيا ... ضد اليهود .

قال الأخضر في نفسه :

- آباؤنا تعلموا من اليهود حرفة صياغة الذهب و صياغة البلغة و الموسيقى ، فالشيخ غفور ليس إلا تلميذا صغيرا أمام أستاذه الكبير « بن سوسان » أما نحن فقد تعلمنا من الفلسطنيين ، تبديل العملة و المتاجرة في الدولار و مغازلة البنات و شرب الويسكي ... و تعلمنا اللكنة اللبنانية ، و أنواع العطور الغربية الأصيلة و المغشوشة المصنوعة في بيروت أو عمان أو مدريد ...

مرات إشتعلت الحرب بيننا في الأحياء الجامعية إستعمل فيها الطرفان العصي و الخناجر .

لقد أخذوا أجمل الفتيات .. راوغوهن بالدولار بالمارك و الفرنك و أغرقوهن بالهدايا القادمة من قبرص و اليونان و الجوهر القادم من الشام و اسطنبول و البحرين .

إستعاد الكبار القصائد و حكايا الغرام من الشبابيك المرصعة بأصص الحبق .

داهمت الشرطة الجميع ، طردت اليهود إلى ما وراء الحدود البرية الغربية .... و نقلت كبارنا إلى العاصمة إلى صمت السجون بتهمة تشكيل حزب إسمه < حزب معاهدة خيبر و الحديبية > .

أقفلت المدينة قلبها .. و نامت في نهارها ، و أقسم غفور أنه سيقلع عن الغناء ، و أنه لا يتمنى أن يسمع أغانيه

< مولاة السالف الطويل > .. و عاد السماسرة إلى حي اليهود فتحوا الأبواب ، نظفوا الحي بالماء المغلي و بدأوا بيع السلع المهربة من المغرب و المصنوعة في معامل يهود المغرب .

سبحان المصير و سبحانك يالله ، أنت الوحيد القادر ، و بعدك من منحتهم من حكمتك قليلا .

أجمل اللحظات تلك التي تعقب تحية العلم عند نهاية التدريب ، كان الجنود يتجمعون أمام < الشاليهات> تبدأ الحلقات

تتسع كلما برد الجو أكثر ، فالمنطقة ساخنة و شهر أوت كما يقول الأهالي أكثر شهور السنة حرا .

« الموت و لاالغمري في أوت »

هذا المساء ... عشية منعشة .. الدوش البارد زاد في إنتعاشا و نشوة ..
شعرت برغبة في إلى الإستماع إلى « فيروز » أو « لجاة الصغيرة »
صوت لجاة شبقي .. ذاك أقوى مافيه ، شكلها لا يثير أي شعور من هذا
القبيل .

المطربة الناجحة هي التي تستطيع أن تشبق صوتها ... لولا شبقية
الأصوات لأغلقت الإذاعات المسموعة أبوابها ، و تحولت إلى مراكز للأحزاب
و حضائر للأغنام أو اصطبلات للابقار .

تشبيق الصوت إمتاع فوق كل إمتاع .. المطربة الفاشلة هي التي تعوض
شبق الصوت بشبق الشكل الجسماني .

الإذاعة المرئية أفسدت حضارة الشبق الصوتي ....

أين ليلي مراد و إسمهان و عبد الحي ....

لست أدري لماذا صوت لجاة الصغيرة يذكرني بشيئ في رأسي يشبه
الإغتصاب .

أمام « الشاليهات » يتحلق الجنود و ضباط الخدمة الوطنية ...

لا وجود لنجاة الصغيرة ، أغلب الرسائل التي تخرج من الثكنة و المرسلة
من قبل الجنود إلى برنامج .

عا يطلبه المستمعون برنامج بارد و إختيار الأغاني فهو تائه ، أسماء الفتيات المهداة إليهن الأغاني من قبل الجنود هن من صنع الخيال ، لا وجود لأمثالهن .

يكذب الجندي في كل شيئ وعلى كل شيئ .. يكذب على أهله إذ يقول حين يعود إلى دشرته ، بأنه أحسن قناص كتيبته ، و بأنه يعرف تفكيك و تركيب كل الأسلحة بما في ذلك الدبابات و الطائرات الحربية التي شاهدوها في إستعراض أول نوفمبر ... و أن تحت تصرفه نصف جيش الشكنة الذي عددهم أزيد من ثمانمائة ، و أنه إستطاع ذات ... ن يجعل قائد الشكنة في وضعية الإنبطاح لأن هذا الأخير أراد أن ..خل الشكنة دون علم منه بكلمة السر .

< صابر > البشاري الأسود اللون يصفق تصفيقة رائعة يغني صابرو . صرو و يردد معه أغنية تقال في الإحتفالات و المواسم ...ا رقصة نصرو و مثله صابرو .

بفضول الجندي الأزرق أردت أن أكشف الشكنة جيدا ، متخلصا من المشية العسكرية ، إندفعت بين المهاجع البعيدة و الأشجار المحيطة ، صوت لجاة الصغيرة الشهقي يثير في رغبة القفز من على السور ، و الذهاب إلى القرية الصغيرة المجاورة ، حيث حول أحدهم منزله الى بار و دار المواعد و سماع أغاني الراي لم أكن أرغب في تعكير صورة < لجاة الصغيرة > فكرت في العودة للتشاور مع نصرو حول فكرة القفز من على السور و الهرب من الشكنة لقضاء ليلة هناك .

لكن رغبة إكتشاف الثكنة في مثل هذه اللحظات كانت أقوى من أي شيئ آخر .أن ننتبه الى ما حولنا ، أن نعرف الأشجار التي ترانا و لا نراها ، أن نعرف الجدران التي تلبسنا و لا نراها ، هذا إحساس شاعر و ليس جندي ، ضحكت من نفسي .

جندي عاري الصدريقسم أنه رآها يوم الخميس الماضي ، وأنه مستعد أن يقضي 24 شهرا في< التوقيف >مقابل أن يراها كل أسبوع .

الجنود الذين من حوله يسمعون ضاع منهم الكلام ، يبدوا أن الجندي المتحدث يبالغ في الحديث ، يعرض أمامهم صورة لفاتن إمرأة ، يبدوا أنه لم يرها سوى في المنام أو على صفحة مجلة .

الذين من حوله يعرفون أنه يكذب و أن مثل هذا الخنزير لا يمكنه أن يصل الى جسد إمرأة مثل التي يصف ، و لكن على الرغم من كل ذلك كانوا يستلذون كلامه ، جميعهم كانوا مستعدين

أن يقسموا بالله و السنين حزبا أن ما يقوله صحيح ، حتى لا يتوقف عن الكلام .

للكلام شهقيته ، و للحكاية جسد كالمرأة الأسطورية ، جسد بسرة جميلة .

كان المتحدث مدركا أن الذين حوله يدركون أنه يكذب و لكنهم مستعدون للقسم و الشهادة على صحة ما يقول لذا كان المتحدث *متهيجا يدقق في أجزاء جسد المرأة قطعة قطعة

تمنيت لو كنت مع المتحلقين حوله ، الذين ما فتئوا يقدمون له تارة « الشمة » و أخرى أنصاف السجائر و أرباعها و مرات يد له واحد منهم سيجارته دون أن تغادر أصبعيه .. يسحب المتحدث يتدحرج الدخان الى الداخل فيخرج كلاما كالسحاب .

أعجبني كذبه ، و أعجبتني المراءة التي يصفها ، قلت كان من الممكن أن يكون هذا المتحدث نحاتا عظيما فتركيزه على الأرداف و العجز و الورك و الفخذين و العبون و البطن و المواضع المشعرة كالرأس و الإبطين و العانة و الحواجب و الأشفار و المواقع المرداء كصفحة الوجه و البطن و السرة و الساقين ،تؤكد موهبة في فقه الأحجام ..و قلت في نفسي أيضا كان من الممكن أن يكون روائيا فقوته على السرد تجعلني أشك في إمكانيات

« غارسيا ماركيز » أو « رشيد بوجدرة » ، أنا لا أعرف روائيا إسمه « الميلودي شغموم » ، إسمه يؤكد أمازيغيته ، لم ألتق به ، و لكن لست أدري لماذا أعتقد أن يكون هذا المتحدث بشكل خرافي هو الميلودي شغموم ، في الأمر شيئ ما .

لا بد وأن يكون « الميلودي شغموم » هكذا ، بهذا الشكل الذي أرى و بهذه الخرافية ، و بهذا الكلام الهذياني السحابي .. بدا لي أن سأل عن شغموم .. لكني خفت أن أفسد على المستمعين لذة الحديث ، لذة المشاهدة ، المتحدث يتلوى مع المشاهد كالأفعى ، و الذين حوله غائبون .

كان علي أن أواصل جولتي ، فأنا أريد أن أكسر الحياة التي نعيشها في الثكنة .

فهاهنا في الثكنة تبحث عن نفسك فلا تجدها ولا هناك عند الجميع ... إنه فقر إلى الوجود الواحد الذي فيه نرى ذاتنا بقوة و صفاء .

هاهنا يا نصرو نحتاج الي أنفسنا .

أسير مع وحدي الهاربة من ظل الجماعة باحثة عن واحديتها ، سعداك بالله فأنت الوحيد الواحد لن تضيع لي أحد ، مساكين المتصوفة !! الحلاج أراد أن يكون أنت ، أراد أن يغفلك عن عشقك لذاتك فأعدموه ، يستحق ذلك .

هذا المتحدث ، هذا الميلودي شغموم هل يعيدنا الى وحدنا ، أم يدخلنا في الآخرين .. لست أدري ، ربما يكون رشيد الذي يهتم كثيرا « بجيرار جنيت » و « تود روف » قادرا على الجواب على مثل هذه الأسئلة التي تدخل أنفها في روائع الآخرين .

هذه عشية .. أنا فيها شاعر ، بما أنني وحدي .. أتفرس الأشجار و أسمع الميلودي شغموم يتهيأ لكتابة رواية ، هكذا يقوم الروائيون ببروفات نصوصهم .

الناس من صغرها تتعلم الصدق و نحن نتعمق في الكذب .. كأسك ياشغموم ياإبن الشلحية .

آه هي المرة الأولى التي أرى فيها شجرا في الثكنة .

قبل أن أحدثكم عن هذه الأشجار كنت أمر أمامها فتهرب مني ، الآن هاهي موجودة و هي نوعان : - البتولا و الخروب .

الثكنة التي نحن فيها نقضي تدريبنا العسكري تسمى « أوفينيون » لا أعرف بالضبط كيف يرسم هذا الإسم و لا يهمني ما يعنيه ، لأن كل الأسماء الفرنسية في الجزائر هي إما أسماء قادة عسكرين أو رجال دين ، و نحن بعد الإستقلال سقطنا في ذات الفخ ، فسمينا الأماكن بأسماء العساكر أو أولياء الله و الدراويش .

ورثنا كل شيئ عن فرنسا ، هي فينا في كل شيئ حتى في الأسماء ، كل أسماء الجزائريين رد فعل ضد أسماء الفرنسيين .

صديق لي إستدعى ذات مرة إلى مركز المخابرات في مدينة ، حين حضر وجد شابا وسيما ، في إستقباله بعد أن إستجوبه البواب إستجوابا دقيقا لم يترك شيئا لم يسأله عنه ، حتى رقم حذائه و لون سرواله الداخلي .

الشاب خريج معهد الحقوق ، تذكرا بعضهما البعض ، و أخفى كلاهما عن الثاني ذلك ، كان لطيفا ، و على الطريقة الشرقية غير المعهودة عندنا قدم له سيجارة ، قال الصديق في نفسه :

- جاءت في وقتها .. إني أشعر برغبة الى تدخين أي شيئ .

قبله .. كان الوسيم مبتسما .. دخلت فتاة تجاوزت الخامسة و الثلاثين من عمرها بصدر عامر و قلب خال ، لم يثر ني حضورها . جلست خلف مكتب صغير مقابل لمكتب السيد الوسيم ، فتحت سجلا ضخما ، الآن بدأت رائحة العطر المغمس فيه جسمها تثيرني ..أعرف هذا العطر .. إنه < روح البوازون >.

الوسيم يتكلم عن الجفاف و عن سخط الله على هؤلاء القوم ... زمن رديء إختلطت فيه كل القيم ...

سألته مقدما له إستدعاء سلمني إياه رجل بوليس ..

- هذا منكم ؟

رفع نظارته المدلاة على صدره مربوطة بسلسلة ذهبية أو نحاسية ، وضعها على عينيه بأناة، و قال بعد صمت :

- نعم ... بسيط ... أنت فلان ....

سألني عن بعض أشياء لا أذكرها و لم يكن يريد أن يسألني عنها .

كان الأنيق يتكلم لم أكن أسمع ما يقول ...
كان عقلي في الحصان الشبقي المعلق على صدر الفتاة ، كانت مهمومة و منشغلة أكثر من اللازم ، لم أرد أن أشعرها بأني أراقب إهتزاز حصانيها ، منظرها كالقصيدة .
كان الأنيق يتكلم عن الصراع في بيروت و عن إسلامية لبنان ، و أن مسيحية لبنان من صنع الإستعمار ، كان كلامه كالريح ... كنت أسمعه يصفر بدلا عن إطلاق كلمات .
سألني عن مصدر الأسمين اللذين أطلقتهما على طفلي ، قلت له :
- ليس واحدة من زوجات الرسول << محمد >> << ص >> اللواتي احتار و إختلف الفقهاء و المؤرخين و كتاب السيرة ورواتها حول عددهن ... هي واحدة .. أما إيقان فهو إسم أردت أن أخلد به بطلا من أبطال روايات << دوستويفسكي >> ...
- إذن أنت إما شيوعي أو مسيحي ...
و قد وصلتنا معلومات على أنك قد شكلت حزبا مسيحيا ، وأنك ستدخل الإنتخابات البلدية بهذا الحزب ، و أن اليهود الذين أخفوا دينهم طوال مدة الإستقلال قد عزموا على منحك أصواتهم .
كان يتكلم ، عيني على صدر السكرتيرة .. كانت قد بدأت تتعب من الرقن على الآلة ... و بدأ حصاناها يتعبان .

وحتى مو سيقى الشوينكوم في فمها موسيقاه التي تشبه إيقاع سنفونية << بحيرة البجع >> قد خفتت .

قلت له مازحا :

- إذا كانت هذه الأسماء تزعجكم ، فأمنحوني ثمن خروفين أذبحهما و أعيد تسميتهما من جديد .

ضحكت السكرتيرة .. تضاحك هو لضحك السكرتيرة أكتشف الآن أن أسنانها ليست جميلة تمنيت لو زنها لم تضحك لقد أفسدت منظر النافورتين على الصدر .

- طلب مني أن أغير إسمي الطفلين .

- أو على الأقل إسم الطفل .

حين أردت أن أخرج، دققت النظر في السكرتيرة عيني عليها و عينه

علي ، كان يريد أن يتخلص مني كلما أمعنت النظر فيها .

صاحبة الحصانين النافرين كالمعلقات .. لم تبد أية حركة تجاهي .

لم يعجبها شكلي و لحيتي التي توحي بموفق جاد في الحياة ، إما نحو اليمين أو نحو اليسار ، وهي لا تريد لا اليمين و لا اليسار ، تريد أن تعيش كالسمكة تذهب في الإتجاهات بحاسة الريح و التيارات .

الليل ثقيل ... كلما أمعنت النظر في العمق كان الثقل الرصاصي يزداد ، و جسمي يبحث عن كوة ضوء ، إبتعدت من دائرة المتحلقين .

حول الشاب الذي يشبه << المبلودي شغموم >> و جدتني مليئا بالخوف الذي يشبه الشعر .

هذه الثكنة كانت في زمن مضي ، مركز تجمع خلق الجنود القادمين من أركان البلاد الأربعة

، إلى الجنوب نحو تندوف و موريطانيا ، و إلى الشرق حيث بليدة و تيزي وزو و قسنطينة و إلى الغرب حيث تلمسان و مسيردا و المغرب الأقصى ... و إلى الشمال حيث فرنسا و ألمانيا و الطليان ....

لا يزال آباؤنا يبكون حين يذكرون أيامهم في هذه الثكنة كانت << أوفينيون >> مصدرا للغناء الحزين .

كان علينا أن نفترق ، كنا نسحب خلفنا ذكريات صداقة الأيام الصعبة كان علينا أن نبكي ، بطرق كثيرة كان علينا أن نبكي .
لا يمكنك أن تنس صداقة السجن أو الثكنة .
كان الضابط القبطان الذي حدثنا عن حب < البق > لفصيلة الدم +O و الذي يحث يحدث أمه الموجودة بأقصى الجنوب عن طريق < التيليباتي > ، كان القبطان واقفا في طوله الطويل يحك بثور حساسية جلدية < الأفزيا > ، كان يحك ظهر ظاهر كفه بعنف ، ربما أثار إنتباه الضباط و الجنود المتواجدين في الساحة .
الحرارة شديدة ، مع أن النهار بداء يقصر آذان المغرب تحرك من مكانه و كذا آذان العشاء .
عادة السماع للأذان عادة ورثتها من أيام الريف حيث كنا نجتمع الى السور الكبير في الدشرة وقبل ساعة قبل آذان الإفطار ، أنا رغم أنني كنت أحب صوت المؤذن إلا أن الذي كان يعجبني في مثل هذا الإنتظار هو شحوب وصفرة وجنتي إبنة عمي مليكة ، و لا زلت حتى الآن كلما سمعت آذان المغرب إلا و تذكرت وجنتيها وإستعدت صوت المؤذن الذي يكون قد مات ما في ذلك شك ، أذكر أن إسمه كان الشيخ الطاهر .
باب الثكنة يبدو الآن و نحن و قوفا في ساحة العلم كباب الجنة ، أقسم بحليب أمي إنه ليس هو نفسه الباب الذي دخلته ذات صباح باكر بلحيتي التي لم أحلقها منذ أن نبتت زغبا .

الباب باب الثكنة يشبه الآن الأبواب التي تؤدي الى أسرة نساء يشدنا الحنين إليهن كلما ضاقت الدنيا أو شعرنا بالكبر . الباب باب الثكنة يشبه - لست أدري لماذا كل هذه المشاعر تجاه باب حديدي من مخلفات الفرنسيين - باب مقبرة ينام فيها حبيب .

تدخل شاحنة عسكرية محملة بالكازوزا ينظر صاحبي الذي يقف مصطفا الى جانبي نظرة الي و نظرة أخرى الى القبطان ، الذي خطف هو الآخر بصره الى الشاحنة التي تحمل الكازوزا ....

كان القبطان يخطب ، نحن كنا نستمع ، لست أدري هل كنت أستمع إليه أم الى آذان مغرب رمضان .. آذان الإفطار ، نحن لسنا في رمضان و أنا لا يهمني رمضان و لا العيد الصغير و لا الكبير .

القبطان يخطب يحدثنا عن الوطنية و شخير الشاحنة التي دب إليها مجموعة من الجنود لإنزال صناديق الكازوزا ، شخير الشاحنة يكبر و يكبر لكن القبطان لم يكن يشعر بأي إنزعاج ... و هو يخطب أسترجع الآن صورته و هو يعيد تفاصيل مقتل زوجته بيديه الموشومتين ، اليمنى و شم عليها أفعى و الثانية رسم فوقها حروفا باليابانية ، يقول منتخرا أنه تعلمها في ليلة واحدة ، و أن اللغة اليابانية أسهل من اللغة العربية ، كتب القبطان و شما على ذراعه الأيمن « أموت لأجلك يا فتيحة » .

من هي فتيحة ، ربما إن الأمر غير ذي أهمية ، صديق كذاب قال إنها المرأة التي أشترت له « معمل الكازوزا » إلا أنها كرهت العيش معه فطلبت منه أن يطلقها مقابل أن تتنازل له عن المعمل الياباني الذي جاء ليعاين آلات المصنع هو الذي علمه كتابة هذه الجملة باليابانية ، و هو إضافة الى ذلك يعرف أداء التحية باللغة اليابانية ، و هو في بعض المجال يقول أن له جدا من أجداده الأوائل هاجر الى اليابان ، و ربما هو الذي أسس الأمبراطورية اليابانية .

حين يتحدث القبطان عن أصولة اليابانية يؤكد أمام الجميع بأن هناك من اليابانيين من هم طوال ، الأمريكيون هم الذين يقدمون الياباني على أنه قزم القبطان يسير بين الصفوف يطلب من بعض الواقفين في الصف من الجنود أن يحلقوا رؤوسهم بطريقة إستهزاء .

« أنا لا أدري إن خيرة و عائشة معنا في الثكنة ...»

وقف أمامي نظر الى وجهي ،أنا لم أحلق لحيتي منذ أربعة أيام ، لم يقل شيئا ، لكنه كان يريد أن يقول شيئا .

الآن يدخل ساحة العلم ضابط أخر يحمل أوراقا في يديه ، قال نصرو ، هذا هو ضابط الذي ذهب هذا الصباح الى القطاع العسكري لإحضار قوائم أسماء دفعتنا التي أنهت تدريبها ، كلم القبطان الطويل الضابط البدن ، سكت كل من بالساحة ثم شرع البدن في تلاوة أسماء الدفعة المتخرجة .

كنت أفكر في عبدو الذي رمى بي ذات صباح باكر في باب هذه الثكنة ذلك الباب الذي لم يعد هو نفسه الآن لقد غطته مسحة رومانسية غريبة ، عاد عبدو الى وهران ليشرب البيرة و يدخن ما رلبورو ، الان ها أنذا أستعيد لست أدري لماذا تليفوناته الأسبوعية لإليزابيت التي تشبه في طقوسها صلاة الجمعة .

كان علينا أن نعود الى الشاليه أن نجمع أدباشنا ، و أن نودع بعض الأصدقاء الذين فرزوا لأماكن صحراوية بعيدة ، كان علينا أن نرثيهم رثاء خاصا ، بعضهم كان يبكي ، كان علينا أن نعيد ما لقيصر و ما لله كان علي أن أجمع هذه الأوراق التي كتبتها بعناية .

أخرج مصطفى قنينة « الشمبانيا » ، كان ضاحكا قائلا :

- هذه هي المفاجأة التي قلت لكم عنها ..

فتح مصطفي القنينة ، طارت رغوة الشمبانيا في سماء المهجع ، ضحكنا و خرجنا نجر الحقائب لنعيد الى المخزن الألبسة العسكرية ، كنا و لأول مرة في الثكنة بلباسنا المدني .

مشاعر غريبة تسيطر علي و أنا أجتاز الساحة الرئيسية ، ماعادت الأشجار هي تلك الأشجار و الأرصفة ماعادت هي الأرصفة التي أفترشناها طويلا لغنائنا و سهراتنا .

كان صديقي رشيد الذي يحب بارت و كريستيفا كثيرا يسير أمامي بجسده العريض ، الآن بدت لي مشية تشبه مشية رجال الدين المسيحي ، الآن فقط أربط بين مشيته و حكاية أخيه الذي أتهم بتأسيس حزب ديني مسيحي بتلمسان ، ربما لم يكن رشيد يتحدث عن أخيه بل عن نفسه ، و تلك حكاية أخرى من حكايات زمن الثكنة الأزرق .

سماء الثكنة كانت دون لون ، شاب كان يصرخ بأعلى صوته ، لم يكن سكرانا و لا مشعشعا كان ذائبا كالزبدة من حرارة الفرح .

لا كي .. لا كي ... لاكي ...

بجنون سقط على الأرض حين وضع قدميه خارج الثكنة ، يتمرغ و يقبل الأرض و يبكي و يتحدث بالإسبانية تارة و بالألمانية تارة أخرى ، تحلقنا حوله في البداية و جدنا في الحالة شيئا مما يضحك لكن الأمر تحول الى شيء آخر شعرت ببكاء عميق و مثلي كان أصدقائي الأخرون. مصطفى كان يفكر في « حليمة » التي ستحضر له الليلة أكلة المفاجأة سيأكل بهو و يشرب كثيرا ، قال مصطفى سأكون الليلة شاعرا .

نصرو سيضع رأسه على فخدي الدمشقية التي جاء بها من سوريا ، و التي عانى لأجلها كثيرا ، سيكون له الليلة الوقت الكافي كي يستعيد معها شريط أحياء دمشق سيحدثها عن « باب توما » و « المزرعة » و « القصور » و « أبي رمانة » ، سيذكران الليلة مسرحيات « دريد لحام » و « نهاد قلعي » التي شاهداها معا في الشتاء و الصيف ، كان يسرقان لحظات للمس الأيادي ، هاهي الدمشقية أمامك .

سيارة الأجرة تتوقف و رشيد لا يفتاء يتحدث عن مفهوم البنيوية و مصطفى يضحك كالأطفال ، حديث رشيد كأحاديث رجال الدين في جديته و رصانته ، هو الوحيد الذي ردم فرحة الخروج في قلبه و رغم هذه الحركة و البهجة فقد واصل حديثه عن جاك دريدا و كريستيفا و ميشال بيتور ، يدخن رشيد بطريقة مثيرة و يتحدث و كأنه يحاضر .

تهلعنا نحن الخمسة سيارة الأجرة تنطلق بنا شمالا تجاه وهران حين إلتفتنا ورا منا كان القبطان الطويل يشبعنا و في عينيه دمعة ، كان من بيننا صديق له من نوع خاص ،إن العسكري كهذا القبطان لا يمكنه أن يسيل دمعة . ربما .

ها أنذا قادم أيها الكلب ، سأركب أول باخرة تخر عباب البحر المتوسط لآتيك قبل ثلاثة أيام ، سأقتص منك ، و شيت بي الى السلطات الإسبانية التي رمت بي كالكلب في أول طائرة الى الجزائر العاصمة و منها الى الثكنة ، هاهي الأيام أيها الوغد تعود سأعكر صفو حياتك من جديد ، سأخطف منك زوجتك ، سأجعلها تبكي عند تمثالي العاري بعضو ه الجنسي المبالغ في كبر حجمه ، تلك موأمرة زوجة الأستاذ الجامعي بأيعاز من الشاعرة المقعدة ، كل فنان يرسم ما في قلبه لا ما في الواقع ، هذه بديهة يجب التذكير بها ، مثل هذا الكلام ذي الطبيعة التعليمية تعلمته من البروفيسور الجامعي في ألمانيا و كذا أكده صديقي رشيد الذي قضى معي أيام الثكنة لم يخرج في كل جده و هزله عن البنبوين .

ها أنذا قادم أيها الكلب سابحا أو في الباخرة و المهم أنني قادم إليك، سأعود في البداية لأشتغل مع الشاعرة المقعدة لا بهم سأشتغل ما كنت أشتغله قبل أن يرمى بي في الطائرة في تلك الليلة الشتوية القبيحة ، لا بهم سأزاحم كلب فيوليتا ....

سأشحذ ثمن تذكرة إلى إسبانيا أو الأندلس سأصلي صلاة الجنازة المتأخرة على طارق بن زياد .. سأناديه بأعلى ما في حنجرتي : يا جدي العظيم يا طارق .. !!

سوف أبكي عند القدمين الكسيحتين للطفلة الشاعرة ،

سأقول لها :

- دمنا مشترك .. في آخر قمة .. في آخر نقطة حمراء يلتقي ...

سأقول لها :

- أتركيني أحس ما بين فخذيك طوال حياتي ، المهم أني لا أعود إلى بلد يشبه الثكنة العسكرية بقبطان مصاب (بأقزمية) .

سأتناوب أنا و كلبها على هذه المهمة ...

لكني سأزاحم الكلب ، سأقنعها أن ألسنة الكلاب على الرغم من أنها مثيرة ، إلا أن لها سلبيات كثيرة ، أولها أنها تطلق مادة شبه سامة ، تخلق حساسية ما ، وأن هذه المادة قد تسمم الجسد كله ، كما أنني سأحكي لها حكاية أقسم لها فيها أنها صحيحة مائة في المائة ، و حتى أن إمرأة جميلة سجنها زوجها الذي ذهب الى الخدمة العسكرية أيام الحرب العالمية الثانية ، و لم يترك معها سوى أمه و الكلب ، فكانت المرأة الجميلة تمارس العملية مع الكلب ، و كانت الأم تدرك ذلك جيدا ، و حفاظا على شرف إبنها سترت العملية ، بل إنها هي الأخرى كانت تقوم بذلك خفية عن زوجة إبنها لكن الكلب هاجت هائجته يوما ، فأكل عضويهما في ليلة واحدة ، فماتت الجميلة و نجت الأم بأعجوبة ...

سأكذب و أكذب و أكذب .سأقول لها ، لماذا تحتفظين بهذا الكلب ، إن ألسنتنا نحن العرب في « حرشها » تشبه ألسنة الكلاب ، لأننا و الكلاب من سلالة واحدة ..

- أنظري .. أنظري جيدا ، و أدلق لساني أمامها ..

يفتح فمه أمام المرآة المشققة يدلق لسانه جيدا

- آه .. آه.. يا الزعاف ...

يمسك لسانه بيده ثم يسحبه .. قائلا :

- لتطل حتى تصبح أطول من لسان الكلب و أحرشمنه ..

سأتلذذ بالكذب ..

أجمل العسل هو العسل المعصور من لب الكذب .

لا أجمل من لذة الكذب .

سأخترع لها من رأسي عناوين كتب بالألمانية و العربية و الإسبانية و لغات أخرى لا أعرفها تتحدث عن أن للعرب و الكلاب أصل واحد ، و أن جدهما الأول كان يسكن بمنطقة توجد على بعد مائتين و ثلاثة و عشرين كلم جنوب قصر حراء .. موطن النعمان..

سأكذب و أكذب و أقطب حاجبي كي تقتنع بأن الذي أقوله صحيح مائة في المائة ، أعرف أنها تحب الكلب أكثر مني ، لأنه وديع و غير أكول ... يشرب معها « الويسكي » بنظام .

ها أنذا في الشارع مليئا بالفراغ و التأمل .

- وهران - الغمري ـــــــــ

- صيف 1989 ـــــــــ

- أمين الزاوي -

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
المطبعة الجهوية ... وران

أبو عبدو البغل

https://facebook.com/groups/abuab/

منشورات قصر الثقافة و الفنون - وهران
ديسمبر 1993